www.10planet.net/vb

يوسف المحيميد

نزهة الدلفين

منتديات الكوكب العاشر

www.10planet.net/vb

«الدلفين حيوان مبارك إذا رآه أصحاب المركب استبشروا وذلك أنه إذا رأى غريقاً في البحر ساقه نحو الساحل، وربما دخل تحته وحمله، وربما جعل ذنبه في يده ليمشي به إلى الساحل، وقيل له جناحان طويلان فإذا رأى المركب تسير بقلوعها رفع جناحيه تشبيهاً بالمركب وينادي، وإذا رأى الغريق قصده».

الإمام العالم زكريا القزويني
عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات

www.10planet.net/vb

(١)

كانوا ثلاثة.

امرأة ورجلين..

يمشي الرجل الطويل أمامهما متغاضياً عمّا يحدث، بينما الرجل القصير يشبك يده بيد المرأة ويمشيان خلفه، حين يتوقف الطويل ملتفتاً، مطمئناً أو سائلاً، تفترق اليدان سريعاً باتفاق مضمر، تهربان فزعتين كما لو كانت طيور يحفُّها الحذر، تهربان مثل دلفينين يركضان بانسياب في بهاء الماء.

في الطريق إلى الحسين، حيث لا تنام القاهرة، كانوا يضحكون بشغب كما أطفال، يغنون، ويركبون التاكسي للمرة الأولى جميعاً في الخلف، في المرات السابقة كان الرجل الطويل كما لو كان أباً

www.10planet.net/vb

صارماً ومدبّراً يركب بجوار السائق، فتركب المرأة والرجل القصير في المقعد الخلفي، لم تكن المرأة الثلاثينية إذ تركب تزحف نحو الشبّاك الفصي، بل تبقى في الوسط بركبتين مضمومتين ومحشورتين في الفاصل بين مقعد السائق والراكب الطويل الذي يشبه الأب، بينما كفُّها الساخنة تتسلل في مياه الليل كدلفين أنثى تبحث عن ذكرها، حتى تتعانق أصابعهما المتلهفة في عناق أبدي.

كان الطويل الذي يركب بجوار السائق ثقيل السمع، ولا يلتفت إلى الوراء طوال الطريق، مما يجعل اليدان العاشقتان تبحثان عن بعضهما وتذوبان في ظلام شوارع القاهرة ليلاً، رغم أنه لا يلتقط الكلام بوضوح، إلا أنه يسمع ضحكاتهما معاً مصحوبة بالفرح والغبطة والحنين، دون أن ينتبه إلى أنها تضع رأسها ذا الشعر الأسود الطويل على كتف الشاب القصير الذي يرمي برأسه إلى الخلف على المقعد الجلدي المتسخ.

هذه المرة فاجأهما، وبعثر أوراقهما تماماً، وقد خرجوا من الحسين حيث سيارات الأجرة تتجمع لتلتقط زوار آخر الليل، فبعد أن لحق بهم سائق أجرة سمين ومخدّد الوجه، عارضاً خدماته، وقف الرجل الطويل يفاوضه على السعر، فوافق السائق وركض أمامه فاتحاً الباب الأمامي، وما كاد الشاب القصير يفتح الباب الخلفي للمرأة حتى انتبه إلى أن الطويل سبقهما هارباً مما لا أحد يعرفه، عند سائق آخر توقف وفاوضه، ثم فتح الباب الخلفي فجأةً وركب أولاً، فركبت المرأة الثلاثينية بعده، لكن الرجل القصير الذي يبدو كما لو كان عاشقاً ركب أماماً، انطلقت سيارة الأجرة مسرعة، وكان الشاب في المقعد الأمامي، واسمه خالد اللحياني، لا ينظر إلى الأمام تماماً، ولا يلتفت مباشرة نحوهما في المقعد الخلفي، بل يتظاهر بأنه

www.10planet.net/vb

يحادث السائق، لكن عينه اليسرى أو هي حواسه تشعر أن دلفينته الصغيرة السمراء تذوب حرارتها في كفٍّ ضخمة للرجل الذي يشبه الأب. لم يملك الجرأة أن يدير رأسه كاملاً ليرى، ويتأكد من وضع دلفينٍ أفنى زمناً يلاحقه في كل محيطات العالم، لكنه أحس أنه يرقد في الكف الضخمة المشعرة، فقفز آلاف البحارة والصيادين في رأسه، كلهم جاهزون بحرابهم لأن يمزقوا أنفسهم وينتحروا في النهر! كان الطريق إلى فندق شيراتون القاهرة هذه المرة كالطريق إلى الجحيم، مشياً على الأقدام، كان الطريق طويلاً جداً، والنهر وقد عبرت سيارة الأجرة فوقه، بدا كجنّي سُود نائم لا يتحرك، والعشاق المتجولون في أطراف الليل كانوا مجرد شياطين بقرون مسنونة!.

كان خالد اللحياني الجالس أماماً، بجوار السائق، يحاول أن يستجيب لتعليقات السائق ونكاته، لكن لسانه أصابه الخرس فجأة، إذ يهجس لِمَ يفعل شبيه الأب ذلك، هل يرغب أن يقول إن مسّ اليد هو فعل اعتيادي، ولا يقود إلى ما هو أكثر، هل يعرف أن اليد تلك، لها حكاية يطول شرحها، هل يفهم متى وكيف التفت اليدان، وكيف سرت روح عاشقة في الشرايين، كان خالد يسأل روحه، ولكن لم تفعل المرأة التي أحبته ذلك أيضاً؟ هل الدلفين الذي نحبه يجعلنا أكثر حرصاً على سجنه في صحراء قلوبنا؟ أم أنه يملك أن يعوم بحرّية في عمق أي محيط .. آه يا دلفيني العزيز! كان الشاب خالد يبكي بصمت.

كان الرجلان يحبان بعضهما كثيراً، كانا صديقين، وهما كما يظهر يحبان المرأة معاً، كلٌّ بطريقته، أحدهما يطلق خيول أحلامه، والآخر يرعى عقله أينما ولّى، كان خالد اللحياني يقول لنفسه لحظة أن

www.10planet.net/vb

اقتربت سيارة الأجرة من شرطة الدقي: لماذا جعلتني أظهر هكذا كقتيل؟ هل تريد أن تحميني من عشق يجرفني إلى النهر؟ هل تريد أن تحميها منّي، أم أنك تبحث عن ماء أزرق عميق ليدك التي تشبه الحوت؟.

الرجل الطويل أحمد الجساسي، لم يكن مبادراً، لكنه ضحوكٌ حيناً، وجادّ حيناً آخر، حين يلبس معطف الحكيم تظهر لحيته الخفيفة المخللة بالبياض أكثر رزانة، بينما حين يتضاحك بطفولة وشغب تبدو عيناه حانيتين! أما المرأة الشابة فقد كان قلبها يضطرب كسمكة تلبط خارج الماء، كلما تشرنقت عيناها في سحر عينَي خالد، كانت تلهث فجأةً، وكأنما ركضت أميالاً حين يحدّق نحوها طويلاً بخشوع وتبتل، لا شيء للوهلة الأولى يفسر كيف تخون الشابة معشوقها ذا العينين الساحرتين، وهل مسُّ ظاهرِ الكفِّ مثلاً يعد خيانة؟ كان شيئاً عابراً ومألوفاً أن تمسح على ظهر كفِّ أحمد بشعرها الغزير، لكن العاشق خالد كان يرى ذلك خيانةً بشكل ما! لقد أحببتُ دلفينكِ الأسمر الناعم الجلد، فلم تجعلينه مستباحاً هكذا؟ كان يقول، لِمَ تصبح الأشياء التي نحبها رخيصة فجأة؟ وهل علينا أن نمتلكها وحدنا، ألا نتركها لظروف المحيطات الضخمة في هذا العالم، ساعة في المحيط الهندي، وأخرى في الأطلسي، ساعة في حضن حوت، وأخرى يلتهمها سمك قرش!.

www.10planet.net/vb

(٢)

في المساء كان سيقرأ قصائده في أمسية نظمتها أتيليه القاهرة، فكّر أن يهدي الأمسية بأكملها إلى المحيط الهندي الذي ينقل التوابل ودهن العود والجلديات والحبّ واللوعة محمولة على أجساد دلافين سحرية! القاعة كانت مزدحمة قبيل دخوله، كان يدخن بشراهة في الممر وسط محبيه وأصدقائه، كانت المرأة الشابة ذات العينين الواسعتين، تتأمل عينيه، مأخوذة بأناقته المفرطة، إذ يلبس بدلة رسمية داكنة، بربطة عنق مرشوشة بنثار كحلي، كانت تشعر أنه يلبس البحر ويخيط قصائدَ من ماء، قالت لنفسها: لو لم يكن يخيط الحياة من الماء، لما كشف لي بعد ثلاثين عاماً، أنني أحمل دلفينين صغيرين دون أن أشعر بثقلهما، كيف استطعت يا حبيبي أن تجعل من كفي السمراء دلفيناً قرنفلياً؟.

وقت أن دلف الشاعر القاعة، وجد امرأة محجّبة تجلس في الركن

www.10planet.net/vb

وتراقب الباب، ابتسمت له، فابتسم تجاهها، ثم قامت واعترضت طريقه وصافحته قائلة أنها انتظرته لأكثر من ساعتين، وقد قطعت الطريق بقطار العصر من سوهاج مسافة ثلاث ساعات! أحسّ بالحرج، فجلس بجوارها مجاملاً، دخلت المرأة الساحرة بشعرها الكثيف الذي يشبه النهر، فارتجفت وقد وجدته يجالس المرأة المحجبة في الركن، أشار إليها، فأقبلت وعرفهما على بعض، كان يذكر اسمها وصفتها بحياد: آمنة المشيري! كاتبة من الإمارات! فجأة تذكّرتْ أنها من بلاد البحر والصيادين والبحّارة، وأن المحجبة جاءت من روح الصحراء، كأنما داهمها قنوط يكفي لتجفيف كل البحار، وقتل كل الدلافين القرنفلية، فقررتْ أن تقضي على دلفينه الحنون! هكذا اكتشفت أنها لم تقتل دلفينه فحسب، بل اقتلعت سمكته الرطبة في فمه، بصنارة معقوفة حتى أصابه الخرس! ظل صامتاً وحزيناً طوال الليل! لماذا تفعلين كل هذا بي؟ كان يسأل. كان يقرأ قصيدته «أغسل وحدتي بصوتك» مستمتعاً، حتى انسحبت المرأة خلسة، فما أن رفع رأسه في منتصف القصيدة، حتى وجد مكانها خالياً، فانهار!.

خرجا معاً إذن، آمنة وأحمد الذي يقرأ في علم النفس أكثر مما يحلم، خرجا وتركا الشاعر يقرأ قصائده كما لو كان يطحن حجراً، كان يتأتئ وينلعثم، كان يخطىء ويعيد، يرفع المنصوب، وينصب المرفوع، كان يجرّ الكلام مثلما يجرّ البائع العجوز عربة الذرة أمامه الآن، إذ يجلس في مقعد أمامي لسيارة أجرة، تحمل في مقعدها الخلفي قاتلين، كانا قبيل ساعات أحبَّ مخلوقين عنده!.

كم كان وحيداً بأنانته المفرطة وهو يقرأ قصائده على المنصة، ويبحث عن وجه حبيبته دون جدوى، حتى شعر في لحظة حاسمة

www.10planet.net/vb

أنه يقرأ أمام مقاعد خشبية فارغة! أو ربما رأى دمى ملقاة على المقاعد جامدة لا تبتسم ولا تصفّق، لا تجلس ولا تذهب. وقت أن خرج من القاعة هائماً اعترضه صحافي ليسأله سريعاً عن موقفه من قصيدة النثر العربية، لكنه أزاحه عن طريقه برفق، كمن يهشُّ طيفاً لا مرئياً، وانحدر راكضاً في الشارع مضطرباً، لا يرى غير ما يريد، رائحة الموت تنتشر في الأنحاء، السيارات مثل جنائز يحمل نعشها أربعة صوب المقبرة، ومنبهاتها نعيق ندّابات يلطمن صدورهن، رجل المرور عند الإشارة مثل حارس مقبرة، كان يمشي في قلب الموت قبل أن يستيقظ على رنين مميز لهاتفه المحمول، رنين خصَّ به صاحبه أحمد الجساسي، الذي يحب دريدا والتفكيك، لم يفكّك نصاً هذه المرة، بل فكَّ روحين تطيران بطلاقة، كان يراها طلاقة فوضوية وغير محسوبة! همز الشاعر الزر الأخضر في هاتفه المحمول وهو يلهث في المقابر، فجاءه صوتها رائعاً ومبتهجاً، وهو يسمع ضحكاته بجوارها، كانا داخل سيارة أجرة، كما قالت، متجهَين صوب فندق شيراتون القاهرة، أقفل الخط، ومضى متكدِّراً، ليسهروا ثلاثتهم في قهوة الفيشاوي وسط البلد.

في القهوة اتخذ مكاناً في العمق، ظهره إلى الجدار ووجهه صوب المدخل، جاورته آمنة بجمالها الملائكي، بينما جلس أحمد مقابلاً المرآة على الجدار، كان يرى نفسه ومرتادي القهوة خلفه، بينما أنين الناي ينساب بنعومة من فم العجوز ذي الجلابية، إذ يقف بعمامته الملفوفة حول رأسه قرب طاولة سيَّاح ليبيين، ويدير حزن أم كلثوم: غنّي لي شوي شوي .. غنّي لي وخذ عيني! لم تأخذ عينيَّ فحسب ـ يهجس الشاعر ـ بل أخذَتْ ابنة صياد اللؤلؤ قلبي من قفصه، وعبثت به تماماً.

www.10planet.net/vb

مرّت بائعة الفلّ التي تشبه رجلاً بجوار طاولتهم، وهي ترخي دعواتها للناس: يهدي سركم لبعض يارب! تدعو لهما، قبل أن تقترب العجوز «وردة» بخطوتها الثقيلة، حاملة الدفّ، وتنقر بأطراف أصابعها المتسخة، تغني بصوت حزين ممطوط أغنية شبابية راقصة: حبيبي قرّب بص بص بص! كان صوتها الجنائزي البطيء جعل الأغنية سريعة الإيقاع أكثر حزناً، حتى أن الشاعر عركته نوبة حزن ثقيلة جداً.

www.10planet.net/vb

(٣)

حين خرجوا ثلاثتهم من الفندق تجاه النيل، سار أمامهما أحمد الجساسي كأب، أو كدليل، وهما يسيران خلفه بخطوتين أو أكثر، كانا يسيران بدلفينين بلهوان بمودَّة، يتعانقان في فضاء الشارع، وفي عناقهما ذاك كان ظهر دلفينه يرتطم بجانب مؤخرتها المحشورة داخل الجينز الكحليّ، وإذ ترتطم يده عفوياً في البدء صار يدفعها بقصد نحو فتنتها، فلا يعرف إن كانت تنتبه للحركة المقصودة، بحيث تجذب يده بتواطوء لذيذ، أم أن المسائل تسير بانسياب كالحياة!.

كانت يده كالدلفين الأحدب الخجول، الذي يفضِّل المياه الضحلة المفتوحة، ويسبح ببطء وتلذذ، وكلما التفت نحوه السائرُ أماماً كالدليل، تخلَّص الدفين ذو البطن القرنفلي الفاتح من مياه يدها وقد احمرَّ خجلاً، منتقطاً أنفاسه المتسارعة، مؤجلاً لهوه ولعبه الرائع.

www.10planet.net/vb

هل كان دلفينها يحب اللهو واللعب مع الناس، يتسلّى بقربهم، هل كان دلفينها العالم في الأقنية بين المصاطب الطينية في الخليج يتمسّح بظهره الطري بكل ما يقترب منه! كان مساءً في أواخر أيلول من عام ١٩٩٩ وقد عاركت عيناها لأول مرة عيني الشاعر، وأصابته بحمّى الحبّ الأبدي، فأظهرت اهتماماً كبيراً به خلافاً للضيوف الآخرين، واقترحت أن تأخذه في المساء إلى المتحف البحري، وفي سيارة الضيوف جلسا معاً في المقعد الخلفي، حيث ألقى يده دون قصد في المساحة بينهما على مرتبة الجلد داخل سيارة الكابريس الكحليّ، بينما رمت دلفينها لأول مرة قرب يده، كأنما أحدهما صيّاد يرمي سنّارته وينتظر، كانت المسافة بين يديهما لا تزيد عن مليمترات معدودة، أنفاس الدلافين لساخنة تفضي بشيء سرّي وسحري، كان التخاطب بينهما صامتاً، فلا يعرف آنذاك إن كانت قصدت أن تجعل يدها على مسافة شهقة من يده أم لا، ولم تعرف هي أيضاً إن كان قد تعلّقت روحه بعينيها أم لا، كانت اللحظة مشوّشة كثيراً، ولم يجرؤ أي منهما على سحب دلفينه إلى محيطه، كما لم يجرؤ أي منهما أن يدفعها قليلاً باتجاه الآخر! اللحظة آنذاك كانت صعبة، ممتعة ومؤلمة معاً!.

عند مدخل المتحف البحري كان ثمّة زحام لزائرين أجانب وعرب، فما كان منها وهي تصطحب ضيفاً إلا أن أشارت من وراء المتجمهرين بورقة رسمية في يدها نحو الحارس عند الباب، الأمر الذي جعله يشير بيده أن ادخلا، فكانت اللحظة التي لا تنسى، هكذا سحبت يده عفوياً للمرة الأولى، وانساب دلفينها الطري الساخن الرطب في دلفينه الأكبر حجماً، هكذا دخل دلفينان خلسة في متحف بحري، بل دخلا في عمق البحر، البحر الأزرق الكحليّ أو بحر العشق الملتبس! للمرة الأولى رأت مدينتها البحرية متألقة

www.10planet.net/vb

هكذا، رأت الكورنيش ساحراً، والعمّال الهنود والبنغاليين كملائكة يطيرون في سكينة، رأت الأشجار كما لو كانت تثمر في الجنّة، فلم تعد مدينتها مدينة المال والثروات، بل مدينة العاشقين والدلافين، فكان دلفينها ضعيفاً قبالة شبكة صيّاد جاء من البراري، صيّاد أحبَّ الصحراء، فأحبه البحر، يا لهذه المفارقة!.

دلفينها الأحدب الصغير، ذو اللون القرنفلي الفاتح، يصدر غناءً أشبه بالأنين، كنت أسمعه-يفكر خالد- إذ لا يكفّ عن الغناء والأنين حتى ينطوي بخجل داخل كفّي، فلا أعرف جيداً كلمات الأغنية التي رددها دلفينها كلما أحسَّ بأنفاس دلفيني، هل كانا في طقوس تزاوج سرّية بين دلفينين، هل كان ذلك الغناء أو الأنين هو دعوة للمعاشرة بينهما، هل كانت زعانف دلفينها تشير إلى شيء غامض وهي تنساب في زعانف دلفيني؟ كان الشاعر خالد اللحياني يسأل وهو يتذكر اللحظات الأولى لعراك صامت بين دلفينين قرنفليين!.

بعد أشهر، وقد صارحا بعضهما بالرسائل، أخبرته ضاحكةً أن دلفينها الأحدب، اسمه الدوخ، وقد جاء سابحاً وقافزاً من خليج عمان إلى سواحل دبي، كان خجولا ووحيداً، حتى وصل المدينة الصاخبة، المليئة بالأجانب المشغولين بالحياة والمال، ونام بدعة وسكون لسنوات حتى أيلول المعتدل، فخرج من عمق الماء على صوت موسيقى الرمال، الرمال العطشى وهي تكرع الماء دون هوادة!.

www.10planet.net/vb

(٤)

أمها جاءت من مدينة بهلا، امرأة جميلة إلى حد أن لاحقها أبوها لسنوات، تاركاً تجارته وأمواله مقتنصاً مرورها من أحد شوارع مسقط حيث تأتي لزيارة أقاربها، كانت تمرّ كل صباح في الساعة ذاتها، من أمام متجره، هناك، يقول أولاده الكبار أنها صنعت له سحراً أسود، فهجر بيته وأولاده وزوجته الأولى، صار يلهج باسمها: فاطمة!.

كانت أمي جميلة جداً، قالت آمنة وهي تقاسم خالد اللحياني رغيفاً في المطعم السفلي الصغير في شيراتون القاهرة، ولكن إخوتي جعلوا منها ساحرة كونها من مدينة اشتهرت بالسحرة، ذات جبل اسمه كور، فيه نهير صغير ينساب أسبوعاً للإنس، وينضب أسبوعاً آخر أمام عيون الإنس، لكنه كان ينساب بشكل لا مرئي للجن، قالوا إن أمي سحرت أيضاً أمهم، فصارت تحبها حباً عظيماً، كانوا

www.10planet.net/vb

مأخوذين تماماً، فكيف تحب المرأة ضرّتها؟ أمي يا خالد طيبة وحنون، ستحبها حين تراها وتتعامل معها.

- لا تخف لن تحملك على جريد السعف وتطير بك!.

ضحكت آمنة بطريقة ساحرة، وهي تغمس قطعة رغيف في طبق الفول.

• ليتك تحملينني أنت على الجريد ونطير!.

- سأسحرك!.

• أف! ألم تفعلي بعد؟.

وضحكا معاً، بينما الجرسون السمين يدور حولهما:

- تعرف خالد؟ أتمنى أن آخذك تحت شجرة كبيرة معروفة في سوق بهلا القديم، وأزايد عليك مع السحرة!.

• خلاص كفاية!.

ثم أضاف بعينين ذاهلتين:

• أنا مسحور بك، فقد جلست تحت شجرة الدنيا، وزايدت معك نساء ساحرات كثيرات، فأخذتيني!.

صباحهما الأخير كان غير طبيعي، بدأ ناعماً وطريّاً، وانتهى في غرفة تشبه المركب الشراعي، حيث تحولت الدلافين إلى طيور سحرية ضخمة تطير مصحوبة بالصخب والأنين في سماء الغرفة.

أبي كان ثريّاً، لم أره منذ سنوات بعيدة، غاب عنا ثلاثة أيام

www.10planet.net/vb

متواصلة، وفي اليوم الرابع هاتفت أمي ضرّتها، فأكدت الأخرى أنها كذلك لم تره ولا تعرف له أثراً، قالوا إن أمي حوّلته إلى طائر في قفص عندنا في صالة البيت، في المساء تعيده إلى حالته الطبيعية ثم تضاجعه طوال الليل، وفي الصباح يوقظ الطائر الأصفر الصغير البيت وهو يغرّد بلا كلل. حين كبرتُ عرفت أن أبي هاجر إلى شرق آسيا، لا أعرف إن كان يركض خلف تجارته أم خلف نسائه!.

تركنا نحن أربع بنات وولداً، كنت الكبرى التي تحوّلت إلى أب وأم وعائل، كنت أشعر بالحزن قبل أن أهجر الشعر، لا أسمّي ما أكتبه شعراً، هو مجرد خواطر أكتبها في ساعات السأم والملل والحزن، كنت أكتب ولا أفكر بالنشر، يعني تُسلّى ببساطة، ولكن الصحافة أصبحت مبدان دراستي وعملي، فقد أحببت الصحافة الحرّة الجريئة، وكان بمقدوري أن أكون شاعرة مهمة بأن أستغل الجريدة التي أعمل بها، وكذلك جمالي الذي يلفت انتباه الرجال، من رئيس التحرير وحتى أصغر الصحافيين، إضافة إلى أن الشعر المسائي في الإمارات قليل ونادر، لكنني أحترم الشعر وقداسته وكذلك أحترم نفسي!.

www.10planet.net/vb

(٥)

كانت يدها وقد قبضت على يده لثوانٍ وقادته إلى البحر، أو المتحف البحري، قد صنعت تاريخاً سرّياً بينهما، بعد أن تجاوزت به المدخل المزدحم بالسيّاح الأجانب والعرب، تراخت أصابعها القرنفلية الساخنة، وانسحبت واحداً واحداً، الإبهام أولاً، ثم السبابة والوسطى حتى آخر زعنفة من الدلفين! كي تشير إلى حوض يخص سمكة الشعرى الناعمة، وتتحدث معه عن خصائصها ووفرتها في الخليج العربي. لم يكن حاضراً معها في شرحها بل لم يكد بعد يتخلص من الصخب العارم في شرايينه أول ما قبضت على يده، لكنه قال لنفسه، قد تكون حركة طبيعية تلقائية، ولا يجب تحميلها أكثر مما تحتمل.

بعد شهر أو أكثر بدأت الحياة تضج في هاتفه المحمول، إذ صار كل ليل يضطرب مرتعشاً كسمكة خرجت من الماء، كانت الكلمات

www.10planet.net/vb

تحمل دائماً رائحة البحر والرمل:

رسائل واردة١: خالد..هل كتبت عن المتحف البحري، والأسماك الغريبة!.

رسائل واردة١: ليس بعد، لكن التفاصيل داخل القلب!.

رسائل واردة١: بجد؟ أما زلت تذكر جيداً تلك اللحظات البعيدة؟.

رسائل واردة١: زحام السيّاح والوجوه تمطر في قلبي!.

رسائل واردة١: حين جذبتك من يدك كانت لحظة لا تنسى!.

رسائل واردة١: يدك كانت دلفيناً بحرياً لعوباً!.

رسائل واردة١: معقووول؟ هل كنت تشعر مثلي بذلك؟ ولم تقل شيئاً!.

رسائل واردة١: أحببت طراوة دلفينك ولهوه، شكراً زحمة السيّاح!.

رسائل واردة١: في التاكسي ألقيت دلفيني بجوارك، وكنت تمنيت..!.

رسائل واردة١: يااااليمة..هل كنت تقصدين بتلك الحركة؟ ظننتها عفوية!.

رسائل واردة١: هل يمكن أن تهتم بك امرأة عفوياً وحدك بين الضيوف؟.

هكذا طارت الرسائل عبر المفازات، وأمطرت عشقاً وحنيناً على تلال الرمل، هكذا تحدثا بصراحة عن مشاعر الأصابع وقد ضاجعت بعضها بعضاً، وسال بينهما ماء كثير، فتحولت إلى دلفينين يعتركان في سماء بحرية زرقاء.

www.10planet.net/vb

كانت اللحظة الأولى لدخوله في غرفة التنسيق للسؤال عن غرفته، حيث ثلاث نساء يجلسن على ثلاثة مكاتب متفرقة، رحبت به الكبرى بابتسامة، وأمرت الصغرى أن تهتم بموضوع الغرفة، رفعت الصغرى آمنة المشيري عينيها الساحرتين نحوه لأول مرة، وشهرت سيوف جفنيها، إذ قالت بخجل وسخاء: نخدمه بعيوننا! هاهنا ذاب قلبه الهشّ، وانساق خلف سحرها الغامض.

وفي الصباح خفق هاتف غرفته، فكان صوتها الكرواني يقتات سويداء قلبه، وهي تسأله عما إذا كان تناول فطوره، وفي زاوية قصيّة من مطعم الفندق رأى ملاكاً يجلس أمامه، ويأكل البيض مخفوقاً بأسنان الشوكة، بينما هو يحكي عن كل شيء، ويلتهم حبّات الزيتون الخضراء، كان هاتفها المحمول لا يكف عن الغناء، وهي كل مرة تضحك حين تطالع الرقم، فلا يجرؤ على سؤالها، لكنها ردّت أخيراً وهي ترخي سحر ضحكتها، واصفة للمتحدثة على الهاتف مكان جلستنا المخبوءة في عمق مطعم الواحة في ركن البهو.

أختها من الأب كانت بيضاء، لكنها تفتقد إلى السحر والذكاء الحاد، قالت لي آمنة إنها قريبة منها جداً، أسرارهما مشتركة، هكذا فهمت الإشارات والضحكات بينهما ذاك الصباح البعيد، وقت أن حاولت آمنة أن تصرفها عن خدر جلستنا الصباحية، بينما الأخت من الأب تقاتل لكي تبقى معنا، كأنما تحدثنا طوال الليل وعلى ضوء مصباح السرير الخافت عن شاعر شفيف، بحب البحر والرقص والغناء والقصائد، كأنما دبرتا هذا اللقاء الصباحي، كأنما غافلت آمنة أختها من الأب، وتسللت من الفراش دون أن تحدث صوتاً، فاستيقظت الأخت مفزوعة وقد انتشر الصبح وطارت سندريلا

www.10planet.net/vb

تبحث عن أميرها المفقود!

آه للصباح الأول، وللنظرة الأولى، وللهاتف الأول، وللبسمة الأولى، وللشوق الأول، وللخفقة الأولى، وللتواطؤ الأول، وللمسة الأولى، وللحضن الأول، وللقبلة الأولى. كل الخطوات الأولى المنتظرة في العشق لها طعم التوت ورائحة الجوافة، المباغتات والكمائن الحلوة تغسل الملل والسأم جيداً، ولكن الخطوة الأخيرة تُشعرُ المحبّ بالفراغ الأبدي، وكأنما عاد فجأة إلى ما قبل اكتشاف محبوبته.

www.10planet.net/vb

(٦)

الملل والسأم يجعلان الكائن كالغريق، الغريق الذي يلوّح بيده ليس للبحّارة ولا للغوّاصين، وإنما لحيوان مبارك اسمه الدلفين، هكذا كنت أرفع يدي غريقاً في بحر السأم والملل والقرف، الحياة كانت لا تطاق قرب ساحل مهجور في بلدة حقل، لا شيء أفعله طول النهار حين أعود من المدرسة، بعد أن أصحّح دفاتر التلاميذ، وأقرأ قليلاً وأبقى مسمّراً في الصالة كتمثال من حجر، نادراً أفتح التلفزيون على أي شيء، أحياناً مجرّد خطوط انتهاء البث على الشاشة تكفي للتأمل، قد ألعب بالورق على الطاولة بين شخصين وهميين، كأنما الدلفين القرنفلي لمح كآبتي خلف بحر وصحراء، فانطلق في عرض البحر، ناولني ذيله الناعم فأمسكت به وجذبني إلى اليابسة، حيث الهواء والمتعة وطعم الحياة، ثم حملني فوق ظهره الأملس، بدأ عندي طموح غريب وبحث سرّي عن أسرار وخبايا الغد، أين سيمضي بي الدلفين؟ كنت أفكّر، وأستعيد اللحظات

www.10planet.net/vb

الرائعة طوال الرحلات الماضية، كأنما على الدلفين أن يفرد جناحيه ويطير بي إلى الحياة والغرابة والدهشة، فأسأل نفسي هل ثمَّة حدٌّ للمتعة، كنت خائفاً أن أبلغ هذا الحد، وأعود إلى نقطة البداية، حيث السأم والملل والضيق، فتعود أمي في تبوك إلى هوايتها القديمة، وهي تحتفظ لي بعزائم الزعفران، تلك الأوراق البيضاء المطويَّة بحرص داخل مظاريف رسائل، كي تحجب عن الفضوليين الآيات القرآنية فيها المكتوبة بماء الزعفران الأصفر، فتخرج أمي مظروفاً من جحر غلالتها السوداء بسرِّية، ثم تسلُّ من قلب المظروف الورقة المطويّة بعناية، وتدسّها في كوب ماء، وتحرّكه بإبهامها حتى يصطبغ الماء بالصفرة، وتقول لي اشرب! فأشرب على سبع جرعات صغيرة كما ترشدني أحياناً، أو تنهرني غالباً حين تلاحظ تردُّدي في الشرب أو تأففي بحاجبيّ المعقودين.

كم غضبتُ ذاك المساء حين داعبتها بأن خطفت ورقة الزعفران من يدها وحاولت أن أفتحها، فزعقت بي كما لم تفعل معي حتى في طفولتي، كأنما كان فتح الورقة يلغي مفعولها في علاج ضيق الصدر والسأم والملل والكآبة، أو كأن فتح المحجوب يجلب النحس ويفتح غضب ومصائب السماء علينا، فلم أعد إلى فعل ذلك مرة أخرى. كانت تأخذ باقي الماء الأصفر في الكأس، وتغسل جبيني ووجهي وعنقي وصدري وهي تردِّد: باسم الله العظيم الأعظم! اللهم اشفِ أنت الشافي!

www.10planet.net/vb

(٧)

في كانون الأول/ديسمبر من ١٩٩٩م كانت الرحلة تمرّ بأكثر من محطة، حيث بقي خالد أكثر من ثلاث عشرة ساعة في سفر وتوقف، كان يضحك وهو يتذكّر ذلك، كأنه هو ذاهب إلى المحيط الهندي يقاتل كل الحيتان هناك كي يرى دلفيناً قرنفلياً لعوباً، وإن استطاع دلفينه أن يلاعبه في حلك المحيط فذلك أقصى الأمنيات والحلم، هكذا استقل سيارته من المدرسة التي يعمل فيها وسط بلدة حقل، وانطلق براً حتى بيت الأهل في تبوك، وودّع أمه مسرعاً، بعدها سار خفيفاً صوب المطار، ثم طار في أكثر من شركة طيران في ثلاث محطات منفصلة، تبوك فالرياض، ثم أبو ظبي فدبي، إذ بقي أكثر من أربع ساعات يتسكع في صالات مطار الملك خالد الدولي، يتأمل الماء انسياب في مجرى الفسيفساء في الأسفل، ويفتّش في ركن الهدايا عن سلسال يحمل دلفيناً فضّياً صغيراً، دون أن يجده، كان مكدوداً ودائخاً وهو يصل مدينة المال والمتع السرّية،

www.10planet.net/vb

وقد التقى بضيوف آخرين مدعوين لحضور ندوة سبل الإصلاح في العالم العربي، وعلى هامش الندوة زيارة معالم ليست بعيدة. في صالة الضيوف كانت آمنة تبتسم له أو للضيوف كلهم، لكنها لم تكن التي عرفها من قبل، كانت تتعامل بحذر وخوف. عيناه تشبهان عيني الغواصين في البحر، كأنما يرتدي نظارتين مائيتين ولباساً بحرياً، لا يكفُّ عن التحديق في دلفينيها وهما يتدليان في خشوع فينة إذ ينسابان في العمق، ثم يقفز أحدهما بغتة إلى الأعلى خافقاً نحو السطح، وكلما التقت عيناهما ابتسمت بخفر.

في الميني باص ركب الضيوف كلهم، وركب أخيراً خلف السائق، واندسَّت بجواره، كانت الشوارع مضاءة والراكب الخلفي يملك أن يرى أي حركة في مقعدهما، فكانا يفتعلان ثرثرة مجانية، حتى فاجأتهما منطقة ظلام دامسة، فانطلق دلفينه اللعوب يركب على دلفينها الأحدب القرنفلي، كأنما الظلام بديلاً للمياه الضحلة في الخليج التي تعيش فيها الدلافين وتفضلها.

هل كان عليك أن تقطع البحار والصحراء بحثاً عن دلفين لعوب كي تدفن دلفينك الخجول في دفء زعانفه؟ هل هذه هي المتعة كلها التي غامرت طويلاً بحثاً عنها؟ هل تحتاج أيضاً إلى ظلام عميم كي تتسلل يدك إلى يدها، فتنهد، وكأنما بلغت الذروة كلها؟ كان خالد يفكر كثيراً، ففي المساء لم يستطع أن ينام، فهبط إلى بهو الفندق، ووجد ضيفين عراقيين، أحدهما شاعر والآخر باحث في التراث الصوفي، جلس معهما قليلاً، وضحك مجاملاً إذ كانا يطلقان نكاتاً بذيئة على المومسات الروسيات اللاتي مررن في البهو صوب الحانة، بملابس متقشفة تكشف عن أفخاذهن وأثدائهن، في عمق البهو جلس مراهقان بثياب بيض وغتر حمراء يفاوضان فتاتين،

www.10planet.net/vb

إحداهما روسية والأخرى صينية، وما إن تركاهما حتى جلس مكانهما ثلاثة شبان بثياب فضفاضة، وأذيال صوفية سوداء تتدلّى من عقال أسود فوق رأس كل منهم، جلس أحدهم على ذراع الكنبة، وكان يضحك بفجاجة، حتى نهضوا ودخلوا المصعد جميعاً، فتبعتهم الفتاتان.

كنت أتأمل المراهقين وهم يستّون سيوفهم، ويقودون الفتيات وراءهم إلى المذبح، بل إن أحدهم، وهو أربعيني، مرَّ بنا وهو يخاصر فتاة فيليبينية صغيرة، كانت مشيته منرنحة شيئاً ما، وكأنما كانت تقوده إلى غرفته، كنت أتأمل حياتي أمامي، وأفكر برحلتي الطويلة بحثاً عن يدا هل يمكن أن تكون الحكاية أصلاً ساذجة؟ هل يعقل أن يكون طموح شاعر مخلص لموقفه وحياته، أن يصبح خادماً مطيعاً لسطوة يد سمراء وناعمة، أطلق عليها لحظةَ عشقٍ أو قنوطٍ دلفيناً، واقتنع أنه صيَّاد مغامر ومجنون، كعجوز همنغواي الذي شارف الهلاك كي يصطاد سمكة قرش، ذاك العجوز الذي تعارك مع البحر والموج والجوع، بل تقاتل مع الحياة ذاتها، كي يظفر بالسمكة، هل كنت ذاك العجوز الذي يبحث عن مياه ضحلة كالظلام كي يصطاد دلفيناً يعرف أنه سيفرُّ لعوباً ومحبّاً للحياة أول ما يجد دلفيناً آخر مكتشفاً، هل ستكون أقل إرادة وعزماً من عجوز مغامر؟.

قال لنفسه: لا!.

وقد استأذن من صديقيه العراقيين، متذرعاً بإنهاك السفر والمحطات التي مرَّ بها:

- شغّل بطاقتك! أكو ماكينة صوبك!.

www.10planet.net/vb

صاح الشاعر العراقي، فالتفت ورأى فيليبينية تشبه عروس البحر، فضحك بخجل نحوهما، وألقى بجسده في حضن المصعد، وفي الغرفة خلع ملابسه، ثم نظّف أسنانه جيداً، وغسل وجهه المنهك، واندسّ في فراشه البارد، وهو يفكر، لم لم تتصل على الأقل هاتفياً؟ هل اتصلت مثلاً أثناء نزولي إلى البهو قبل قليل، أرعبه زعيق الهاتف بجواره على الكومودينو، أجاب بصوت متحفّز، فكانت تتحدّث بإنكليزية ركيكة، مقطوفة آواخر الكلمات، كما تتحدثها شعوب شرقي آسيا، قالت له إن سعرها مائتا درهم فقط، ومعها شهادة صحّية، وواقٍ، فضحك!.

كيف لي أن أحلم بدلفين فيغرقني بحر بأكمله، ضحك بقوّة، حتى كاد أن يغصّ بماء ضحكاته، وصار يتحسس جسده تحت الغطاء، ويفكر بقداسته، إذ كيف لي أن أدنّس جسدي هكذا مجاناً، تذكّر المراهقين في البهو أسفل، وسمع ضحكات شباب في الممر المحاذي لباب غرفته، ثم انتفض الهاتف بشبق، كان صوتاً آخر، قالت إنها روسية جديدة، لم تأتِ سوى قبيل أسبوع فقط، وإنها في السابعة عشرة، لكنه استوقفها وقال: سأنام!.

قرّر أخيراً أن يرمي السماعة بجوار الهاتف، وأن ينام ويحلم بالدلفين الأحدب الخجول والبحار والمياه الضحلة المفتوحة، حتى ينقذه الفجر!.

في الصباح استيقظ على صوت البحّارة وطيور النورس البيضاء، وهي تطير محلّقة من فمها المكتنز: صباح الخيييير! قالتها ممطوطة ومغناجة، فأطلق في وجهها القمري الجميل باقة ورد: صباح الورد! أخبرته أن الإفطار سيكون في مطعم الفردوس بالدور الأول.

www.10planet.net/vb

كان الضيوف الثمانية يتوزعون على الطاولات، وقالت لهم وهي تنهض أن الميني باص سيتحرّك بعد ثلث ساعة، فنهض معها ودخلا المصعد كي يهبطا إلى الأرض، أمسك دلفينها وتأمل عينيها بوله، فاندفعت نحوه تطوّقه، وحطت شفتاه على خدّها بخفّة فراشة، ولم يشعرا إلا وهما يهبطان من الفردوس إلى الأرض، إذ انفرج الباب المخاتل على بشر من أجناس مختلفة وهم ينتظرون، فقال لها: لماذا نزلنا من الفردوس؟ ضحكت بدلال وخبث: ألم نتقاسم التفاحة في الفردوس؟.

كيف سافرتَ كل هذا الطريق، وعشرتَ في الظلام على يدها السمراء، وجرّبت الحضن الأول، حيث كان جسدها ناعماً ونحيلاً وهي تلتف حولك وبك، كان الحضن الأول والأخير، بل حتى الدلفين كان طوال الوقت مراوغاً في مياه السفر!.

www.10planet.net/vb

(٨)

تصحو لندن على غيم يلامس أكتاف المارّة، وتدخل في بدايات الظلام باكراً وهي تلتهم أصابع اليد، ولم يكن من مخرج لهؤلاء العرب الأربعة المتجولين في شارع إدجوار رود إزاء هذا البرد، سوى الدخول خفافاً إلى مطعم بيتزاهت، هكذا هبطوا الدرج تباعاً، حيث كان خالد يضع كفه على كتف آمنة، بينما يسبقهم كل من الشاعر الإماراتي المتصعلك، والعراقي المقيم في هولندا، كانت آمنة تشعر بصعوبة الفكاك من هؤلاء كما تزعم، رغم أن خالداً يشك أنها تفتعل ذلك، الأمر الذي جعله يستأذنهم قليلاً، خارجاً على رصيف الشارع، وفكّر أن يحادث أمه في تبوك، دخل كابينة هاتف، كان الزجاج مغطّى بصور المومسات بأجزاء مختلفة من أجسادهن، وأرقام هواتفهن، إنكليزيات ومغربيات وفيليبينيات، أجال بصره بينهن، هذه تبتسم بإغواء، وتلك تضع إصبعها الوسطى بين شفتيها وتطالع نحوه، وثالثة تقف مثل كلب شامخ عارضة مؤخرتها الرشيقة، أعاد

www.10planet.net/vb

السماعة إلى مكانها دون أن يتصل.

تجوّل في إدجوار رود، ماشياً صوب حديقة الهايد بارك، تأمل الواجهات الزجاجية للمتاجر، انعطف سريعاً داخل محل هدايا، تأمل في المعروضات: حافظات نقود نسائية ورجالية، ميداليات برونزية صغيرة على هيئة بيغ بن، أشكال متنوعة لجسر لندن، قبعات ملوّنة، أقراط نحاسية وفضّية، سلاسل عنق، قلائد، يتأمل قلادة قلب حبّ، يتجاوزها إلى سلسال ينتهي بصليب، ثم يتوقّف مشدوهاً أمام سلسال ينتهي بدلفين صغير قافزاً على شكل نصف انحناءة، طلبه من البائعة المبتسمة، وتفحّصه، ثم خرج.

كانت يده الباردة تتفحّص مجسم الدلفين الفضّي الصغير داخل جيب بنطلونه، كانت إبهامه تحكُّ الدلفين الفضّي منتظراً أن يخرج المارد بطول يفوق مبنى ساعة بق بن، ويسأله عن أمنياته، فيقول أن ينام دلفيني مع دلفينها!.

كم كانت السماء قرية لحظة ذاك!.

كم كان يحلم أن إدجوار رود أصبح محيطاً خالداً، وهو يعوم بدعةٍ مع الدلفين اللعوب، يعانقه ويعلوه ثم ينفصل عنه. قرب مطعم البيتزاهت وجدهم يقفون بانتظاره، مشوا معاً ناحية الكوبري قرب فندق هيلتون متروبول. كانت آمنة تجاوره، وتهمس: وين غطست؟ كاد أن يقول لها، لكنه كان محاصراً بحارسين يمشيان بجواره، فقال: غطست كما يغطس أيّ دلفين في محيطات العالم! ضحكت، وأخبرها همساً في أذنها بالدلفين لفضي الراقد في بحر جيبه، حتى ضحكت وهي تصرخ مبتهجة: معقول؟.

www.10planet.net/vb

تأخر خطوتين، وتآمرت هي أيضاً معه، كان أخرج الدلفين الفضّي من جيبه بحذر شديد، ودسّه في كفها الباردة، في غفلة صاحبيه اللذين كانا ينافشان فساد السلطات في العالم العربي، ضحكت وهي تخفي الدلفين القلادة في محيط حقيبتها اليدوية السماوية، قالت له: نشوف تايتانيك؟ عرضا الفكرة على صديقيهما، فاعتذر العراقي المهاجر، قائلاً إنه فيلم سخيف، بينما قال الشاعر الإماراتي الذي يحب السينما إنه شاهده من قبل، لكن لديه رغبة لتفحص تقنية الفيلم وبناءه، ثم تراجع أمام عرض صاحبه العراقي بأن يأخذا رأسي معسل في قهوة عربية في إدجوار رود، ويتندرا على المخبرين العرب الذين يعرضون بصفاقة خدماتهم على الغرباء، التفت الإماراتي نحوهما وأشار أنه سيلحق بهما في السينما بعد أن يقطع رأس المعسل.

كانت اللحظات قصيرة ووجلة، ففي لندن حيث العشاق يضطجعون على عشب الحدائق، ويدخلون في برزخ العناق الطويل في الشوارع، ويقطفون قُبَلاً طويلة وخاشعة في المتاجر أو على الطرقات العامة، وهم لا يشعرون بالعالم من حولهم، كان خالد يبحث عن ألف مخرج لأن يهب محبوبته آمنة قلادة الدلفين! كنّا نحمل آثامنا معنا، لا نتخلص من حذرنا وشكوكنا، كان خالد يفكر، كيف نطير كل هذه السماء دون أن نعثر على وسيلة لكي نهدي من نحبّ قلادة أو أقراطاً؟ فضلاً عن أن نختلي به؟ يا الله كم كانت السماء كريمة وسخيّة أبداً وهي تهبهما فرصة الخدر في صالة سينما معتمة، لم يعثرا على مقعدين مناسبين في الخلف، لكنهما اتخذا الطرف الأقصى، بحيث يحدّقان في الشاشة الضخمة من الجانب، ويراقبان باب الدخول المعتم كل فينة. وضعت رأسها على كتفه بحذر، وهي ترمق الباب المعتم، وشوش أذنها الصغيرة

www.10planet.net/vb

بشفتيه، فأدارت رأسها نحوه دائخة، ومسّت شفتيه برفق، فغرقت سفينة التايتانيك العظيمة، وضاعت في المحيط بقاياها مع دلفينين يلهوان مرّة داخل الفيلم، ومرات خارجه.

شهقت آمنة حين وقف ليوناردو دي كابريو في مطلع الفيلم على مقدمة السفينة، فارداً يديه على اتساعهما، صارخاً نحو صاحبه والهواء يعبث بشعره، مشيراً إلى الدلافين اللعوبة وهي تسابق السفينة العملاقة، عانقت يدها السمراء يده وضغطت عليها، وضحكا معاً بخفر، فالتفتت عجوز شقراء أمامهما ونهرتهما بحاجبين معقودين، فصمتا بخجل، لكن الدلافين لم تكفّ عن اللعب واللهو في الظلام طوال الفيلم، لم تكن يده اليمنى تضاجع فحسب، بل حتى يده اليسرى تنقضّ على دلفينها إذ تجلس على يمينه، وكأنما حتى يداه صارتا دلفينين ذكرين يتنافسان على أنثى الدلفين القرنفلية.

www.10planet.net/vb

(٩)

هام الإمبراطور الفرنسي شارلمان العجوز بحب فتاة ألمانية، إلى حدّ أن أهمل ملكه، مما أقلق رجال البلاط من حوله، وجعلهم يبحثون في حلٍّ لمشارفته الهلاك، حتى ماتت الفتاة، فتنفّس رجال البلاط الصعداء وشعروا بالغبطة لمشيئة الربّ، إلا أن الإمبراطور فاجأهم بطلب نقل جثمان الفتاة إلى غرفته، معتزلاً البارونات والأساقفة والناس والحكم، مما جعل الأسقف توربن يتشكك أن في الأمر سحراً، فطلب الدخول وفتّش جسد الفتاة الميتة، حتى عثر تحت لسانها على خاتم ذي فصٍّ غريب وثمين، وما أن احتفظ به الأسقف، حتى هام به الأمبراطور عشقاً، الأمر الذي أحرجه أمام الآخرين ورجال البلاط، فقرّر أن يطوّح بالخاتم في بحيرة كونستانس، فتحوّل عشق الإمبراطور شارلمان إلى البحيرة، وظلّ بقية عمره لا يفارق شواطئها.

www.10planet.net/vb

كان الشاعر خالد اللحياني يهجس بحكاية الإمبراطور الفرنسي، وهو في قاعة السينما في لندن مع معشوقته آمنة، لحظة أن بات يزعجه خاتمها ذو الفصّ الأزرق، كلما حاول أن يشبك أصابعه داخل أصابعها السمراء النحيلة، ففكّر أن يطلب منها أن تخلع خاتمها حتى يعانق دلفينه دلفينها، لكنه ارتبك، وظل يتخيّل العالم كيف يصير، والحكاية كيف يحتمل أن تنساب في مسارب أخرى.

في غرفته الصغيرة المؤجرة، في بلدة حقل الساحلية المطلّة على جبال سيناء، حيث يعمل مدرّس جغرافيا للابتدائية، امتلأت جدرانها بصور شتّى لدلافين لعوبة، بعضها طائر بشغب أمام الكاميرا، وثلاثة دلافين تطير في حركة بهلوانية، وصورة ضخمة لدلفين يتمدّد على ساحل رملي، كانت حالة خالد صعبة ومؤلمة، كان لا يكفّ عن اللهج بدلفينين قرنفليين قفزا من المحيط الهندي حتى بحر العرب، ومن ثم إلى مياه الخليج، حتى نام في مياه قلبه وعقله، كانت أمه تفتقده في تبوك كل عطلة نهاية أسبوع، وتبكي، حتى عرفت أنه ترك عمله في المدرسة الابتدائية ونسي خرائط جغرافية العالم، ولم يبق أمامه سوى خريطة كفين سمراوين، فجاءه ذات نهار صديقه مصحوباً بإمام المسجد، الذي أنهكه بالأسئلة المرتابة حتى أيقن أنه مسحور، من يدري ربما كان السحر الأسود الطائر من بهلا قد سحق قلبه، وينصح الإمام صديقه بأن يسافر معه ويبحث الأمر مع البنت، عليه أن يبحث عن موطن العشق أو العبادة أو السحر، أي يديها اللتين قضتا على روح الشاب، هناك يحرز الصديق عبر خدعة تحدٍ ورهان مع آمنه على خاتمها ذي الفصّ الأزرق، فينسى خالد معبودته فجأة ويهملها، ويهيم عشقاً بصديقه إذ يمسك بيديه ليتحسسهما، يكاد يلتهمه بالنظرات الهائمة، بينما صديقه في مقعده بالطائرة يتشاغل عنه بالنظر من زجاج النافذة، وهو يشعر بحرج

www.10planet.net/vb

شديد من دهشة مضيف الطائرة الذي يترصد حركاتهما الغريبة. ما إن يصلا بلدة حقل، حتى يسلّم الصديق خاتم المعشوقة إلى إمام المسجد، كي يتخلّص منه، ليتلفه أو يرمي به في النار، لكن الإمام الذي كان مزدحماً بالمشاغل والركض خلف زوجتيه وصالات البنوك مصطاداً الأسهم بجنون، نسي أمر الخاتم في جيبه العلوي بجوار السواك، مما جعل خالداً يلهث وراء الإمام مثل كلب وفيّ وهالك، لدرجة أن ينام على عتبة بيت الإمام منتظراً خروجه لصلاة الفجر، فيكاد الإمام يتعثر به في الغبش، مما يجلب الحرج إلى حياته إزاء زوجتيه وأولاده وجماعة المسجد، فيقرّر أن يرمي بالخاتم الملعون في خليج العقبة، ليبقى خالد متسمّراً على شاطئ الخليج الرملي، يحدّق في الماء، قبل أن يتمكّن منه السحر فيقرّر أن يعوم صوب جبال سيناء الضخمة، وبغيب إلى الأبد.

يا للنهاية المأساوية!.

قال خالد لنفسه وهو يشعر بألم في أصابعه من خاتمها الفضّي ذي الفص الأزرق، فكّر أن ينزعه بنفسه، فخلعه بصعوبة وهي تتنهد بغنج أمام أحداث فيلم تايتانيك، ووضعه في بنصره من قبيل المزح، فكتم ضحكة مباغتة، وهو يتخيّل كيف يتحوّل عشقه إلى نفسه، كيف يعشق نفسه إلى حدّ أن يقف طوال ساعات قبالة المرآة، يتأمل وجهه، ويتغزل بأصابعه ويده الرائعة، يا للهول، هل يمكن أن يكون خاتمها مسحوراً، خاصة أن كل الرجال من صحافيين وشعراء وفنانين في الأمسيات الشعرية والمهرجانات يختلقون النكات الساذجة كي تضحك، فيمدون أيديهم بما يوحي بالعفوية كي يحسسوا يدها الساخنة ذات الخاتم المسحور!.

www.10planet.net/vb

(١٠)

ما الذي يجعل أحمد الجساسي يحرص كثيراً على أن يجاورها في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، ما الذي يجعله يحتوي كفَّها الصغيرة السمراء بحنان، وتعتمل إبهامه الضخمة على ظهرها مداعبةً، يا إلهي، كيف يمكن أن أنام ويدك الرائعة تنام في حضن حوت! كان خالد لا يكف عن البكاء الصامت، لحظة أن اكتشف خيانة أنثاه الدلفين.

في الليلة السابقة، قبيل ركوب سيارة الأجرة كانوا قد سحبوا أقدامهم بتثاقل خارجين من قهوة الفيشاوي، سبقهم أحمد في زقاق ضيق يفضي إلى ساحة المسجد، فانزوى في كشك جرائد، توقفا قليلاً وتلفتا باحثين عنه، قرّرا أن يمشيا إلى الساحة، حيث المقاهي والمغنون والباعة، في الكشك وجداه يتصفح بعض الجرائد، خرجوا جميعاً واتخذوا مكاناً في مقهى ليالي الحسين، جلسوا إلى طاولة

www.10planet.net/vb

مجاورة لعائلة خليجية كبيرة، يجلس أمامها عازف ومغن وضارب طبلة، وقد وضعوا طفلتهم ذات السنوات الثلاث فوق الطاولة لترقص على إيقاع العود والطبلة وتصفيق النساء. رمت عجوزٌ علبة منديل بلاستيكية صغيرة، ومضت تراقب عن بعد، طلبا شاي كشري وماء، بينما طلبت هي شاي ليبتون مع نعناع، مرّ بجوارهم رجل مجنون يمسك طرف جلابيته الملونة، ويزعق كلما رأى رجلاً أنيقاً بلباس رسمي، كأنما يقول أنتم أنيقون ومتماسكون في الخارج، أما في الداخل فأنتم مرتبكون ومهزومون، وأي شيء يمكن أن يبدّد أناقتكم الخارجية!.

كانوا يتحدثون في ما يشبه الزعيق، إذ توعَّد أحمد ضاحكاً، بلحيته المخلَّلة البياض، أن تتحوّل أمسيتهم إلى ما يشبه الاعترافات، كان يخطِّط أن يقلب المحيط بأكمله، حتى تغرق الدلافين كلها وتنفق على شاطئ الحياة، بدأ بحكاية مشروع زواجها من قريبها الذي يسكن الشارقة، وبدأت تحكي وتتلعثم وعيناها تبحثان في منارة مسجد الحسين العالية عن مهرب، اللعنة عليك أيها الأب أحمد، لماذا جعلتني في مأزق مع دلفيني العاشق، لماذا حين طرت معه إلى ما هو أعلى من المنارة، أردت أن تضربني في مقتل، حتى أسقط من علٍ كطير قتيل، هكذا فكّرت آمنة، وهي تعود إلى الأرض وتثرثر، وقد تذكّرت حزنها العميم، لحظة أن رأته جلساً مع المرأة المحجَّبة، معرِّفاً بها بحياد ولا مبالاة، بل دون أن ينهض احتراماً، تحدّثت ببساطة عن حلمها بأن تصبح أمّاً، تريد أن ترى صغيرها وتحتضنه وتربيه، قبل أن تختطفها السنوات في غفلة الدنيا.

* يا بن الوسخة!.

www.10planet.net/vb

علت فجأةً شتائم مسنونة وصراخ في الساحة، فأحاط رجال أمن برجلين اعتركا، ثم بدأت الكراسي تخلو من الجالسين، بينما عمّال المفاهي يقلبون الكراسي فوق الطاولات، أو فوق بعضها بعضاً، حتى وصلتهم حركة قلب الكراسي مثل موجات البحر، ودفعوا الحساب ثم مضوا قرب موقف سيارات الأجرة، كان يحيط بهم أطفال شحّاذون، ركبوا سيارة الأجرة، لكن الصعاليك الصغار تسلقوا سيارة الأجرة مثل قرود جبلية، مشت السيارة ببطء في محاولة أن يتراجع الصغار، لكنهم متشبثون، الأمر الذي جعل السائق يوقف سيارته بعصبية، وينهرهم، ولم يكد يعود إلى السيارة حتى كانوا أكثر عدداً فوق صندوق السيارة الخلفي، بل إن أحدهم يتسلق باب السيارة الجانبي، ثم تناقصوا حتى بقي واحد لحظة أن ضاعف السائق السرعة:

• أوعى، لحسن يقع! نبهه أحمد.

لكن سائق الأجرة رأى أنه سيعذبه في أطول مسافة ممكنة للعودة إلى الحسين، حتى توقف عند إشارة مرور، ونم نحد نرى الطفل الصعلوك.

www.10planet.net/vb

(١١)

عادوا اليوم من الحسين، عادت آمنة الملتبسة العواطف، وأحمد الضحوك، من الحسين بالبهجة والحياة، بينما الشاعر المكتئب عاد بالموت، كان يمشي بلا رأس، لم يعرف كيف وصل إلى الفندق بينما رأسه على رمح صديقين قطفاه من الخلف كما قطف لها وردة بالأمس، فقبلتها مجاملةً، وهي تقول إنها لا تحب موت الورد على حساب حياة عواطف الناس!.

هكذا قتلاه معاً، رجل غدر به وجزَّ رأسه، وامرأة تهكمت على رأسه الذي طافوا به في أنحاء المدينة، لم يبق في الحسين سوى الحزن والسواد، كانت الدنيا رايات سوداً، وكان قلبه المطروح هناك قرب الضريح لم يزل يلبط مثل سمكة النهر، كان يمشي بقدمين، لكنه كان بلا عينين ورأس، وبلا قلب، مجرّد جثة كانت تتحرّك بخدر وتتبع بحواس غريبة قاتلي اللاهيين.

www.10planet.net/vb

لم ينتبه خالد اللحياني وقد جلسوا ثلاثتهم أمام الاستقبال إلى صدرها، هكذا لمح أن عقداً بفصٍّ أزرق سداسي يتدلّى، لا يعرف من أين جاء، بينما عقدها الذي اشتراه لها من شارع إدجوار رود بلندن كان قد اختفى، لم يعد الدلفين الفضّي المتأهب فوق بلاطة صدرها يعيش، كأنما قتلته بحربة داخل حقيبة، أو كأنما الحوت بجانبها قد التهمه بوصاياه الأبوية!.

اقترحت آمنة، وقد شعرت بالغصة أن يخرجوا في جولة على الأقدام، كان أحمد يغني مرة، ويرمي النكات مرة أخرى. فتستجيب له ضاحكةً في البدء، إذ ترخي حبال صوتها في بئر الظلام، لكنها لزمت الصمت آخر الطريق، إذ فقد خالد الكلام نهائياً، كأنما لا يمارس رياضة المشي فحسب، بل رياضة الصمت أيضاً. كان يمشي كأنما وحده، عيناه مغروزتان في الإسفلت، يتصيد بحذائه ورق التين اليابس المتساقط على الطريق، يدوس بقدمه عليه بتلذذ قاتل، حتى يسمع خشخشة موته، كأنما كان يدوس على حراشف دلفين. كان يوقن أنه يستيقظ الآن من لعنة الحلم، يشعر بمتعة نادرة وهو ينشر فتات الورق الخريفي تحت قدمه، فاستمرت حالته تلك طوال الطريق.

ملَّ أحمد من محاولاته الفاشلة لجذب صديقه إلى المرح والضحكات، إذ بدا الشاعر يحلّق بروحه خارج الزمان والمكان، كان عند الضرورة يبتسم فحسب، يبتسم مجاملاً، حتى لا يبلغ الحرج أقصاه لدى صديقه: «إن تكلمتُ لم تُنتع عنّي كآبتي، وإن سكتُّ فماذا يذهب عنّي» كان يوسوس في داخله كلاماً قديماً قبل أن يسمع المرأة ذات العينين الواسعتين والشعر الطويل حتى الخصر، والمعقود أعلاه برباط مطاط أحمر، وهي تقول إنها رأت فيلماً فرنسياً

www.10planet.net/vb

قبل أشهر، كان عن بنت وحبيبين، تعشقهما معاً، ويعشقانها معاً، أحدهما فرنسي والآخر أفريقي، فقرّرا بعد تعب ومرارة أن يحسما الأمر بينهما بالحظ، إذ يطيّر أحدهم عملة معدنية، وحسب الوجه الذي تسقط عليه، تكون البنت نصيب أحدهما، فمضت البنت مع الفرنسي، وغادر الأفريقي حياتها إلى الأبد، هل نملك أن نحدّد مصائرنا تبعاً للحظ، أتهون الحياة والسفر الطويل بحثاً عن دلفين قرنفليٍّ ساخن وكريم وباذخ، لماذا تعبثين بحياتي ومصيري؟ كان الشاعر يفكّر، ولماذا أمضي إلى أفريقيا وحدي؟ كان يفكر بالنيل الخالد، كيف لو هوى بجسده كدلفين مدرَّب، وغاص إلى الأبد! كيف لو صار أول دلفين يزور النيل، أو ينتحر وحيداً في النيل. كان يفكّر لو تمهَّل قليلاً، وعاد إلى بلدته حقل، وغاص في خليج العقبة، لتبكيه طوال الليل جبال الزبتة شرقاً، وجبال سيناء غرباً، وقد يستيقظ رجال غرباء من مدافنهم أو من بيرتهم الجبلية في جبل اللوز، وهم يحملون جثته بصمت رجال غرباء وخالدين!.

www.10planet.net/vb

(١٢)

صامتاً كان كسطح البحر، مصطخباً تحت السطح ببوصة، حيث الشبوط يعارك، والدلانين تلهو، وسمك القرش يشن منشاره بحنق، هكذا لا شيء لدى الشاعر أكثر من صمت مهيب مصحوباً بتأمل وفهم عميق لعلاقات ملتبسة، علاقة مع امرأة، وأخرى مع رجل! وتحت الجلد تماماً، أي تحته بمليمترات يضجُّ عالم لا يهدأ ولا يستكين!.

كان خالد الشاعر المتأمل الحزين، يشبّه أيامه القليلة الماضية بمحارة البحر، تلكم المحارة النائمة في عمق البحر، ثم لا تلبث أن تصعد من القاع نحو السطح سريعاً، كي تتلقف قطرةً ساقطة، حيث النجم الساطع هابطاً إلى أقصى حد، ثم تعود المحارة مرة أخرى إلى القاع، وتصمت فيه حتى تتشكل اللؤلؤة في جوفها! هكذا صعد الشاعر كالمحارة ملتقطاً قطرة الحبِّ من فم معشوقته، التي تغرس في

www.10planet.net/vb

جوفه بذرة الحبّ والشقاء، وتخونه مع النجم الهابط إذ تعلو معه، وتنظر نحوه من علو بسخرية المتحكمين بالمصائر!.

كانت القصيدة كاللؤلؤة، تحتاج إلى صمت عميم في قاع الروح، هكذا دخل الشاعر في صمت الحكماء، دون أن يكترث بالثرثرات والنكات من حوله، حيث كان صاحبه يغنّي لأجله، وحبيبته تميل نحوه في الخطوات مرخيةً دلفينها، لعل حواس دلفينه تصحو، فيبدأ العناق، لكنه كان نائماً في القاع، إن لم يكن ميتاً! حاولت آمنة أن تمسك ذراعه فكأنما كانت تمسك غصن شجرة سنط يبس: يبدو أن الأمر لم يعد محتملاً، لقد اقترفتُ إثماً لن يغفره لي خالد! كانت تهجس: لكن لم يكن لي من الأمر شيء، هو من ركب بجواري، وأنت من انهزمت وركبت بجوار السائق، وهو الذي أخذ يكفّي وأصابعي، وبدأ يدعكها برعونة، صحيح أنني استسلمت بدوري، لكن الأمر كان صعباً، لا أعرف إن كنت أحبه أيضاً مثلك أو أقل من حبك قليلاً، أو لا أعرف إن كانت الغيرة قتلتني تماماً لحظة أن رأيتك تجلس في زاوية القاعة مع المرأة المحجبة!.

في مشيتهم تلك، التي فقد فيها صاحبهما النطق تماماً، أمام ثرثراتهما وأسئلتهما، حتى تحوّلا مثل تلميذين صوفيين بحضرة معلمهما، كانا كمثل التلميذ المملوء بالهموم والشك، يأتي معلمه المتأمل الصموت، ويجلس بجواره، بل يلتصق به تحت شجرة، ويسأله العديد من الأسئلة عن الله والحبّ والوجود، ورغم أن المعلم لم يتفوّه بكلمة واحدة، إلا أن التلميذ ينهض أكثر خفّةً وقد تبدّدت شكوكه وأسئلته! هكذا كانا، إذ صمتا بقية الطريق، وقد تبدّد شكهما حول ما حدث، فكأنما فهما أن الشاعر العاشق يحس بالخذلان يأكل قلبه، الأمر الذي جعل صديقه المحبّ المريدا أن

www.10planet.net/vb

يقول له وهم جالسون في اليوم التالي على لنيل: أنت غارق لحد شوشتك!

بعد أن صحت «الدُّفي» بتلاميذها وباعتها، وبدأت فيها وردية الصبح لرجال الشرطة، على وجه الفجر تقريباً، عادوا إلى الفندق، وجلسوا قليلاً في البهو، أحمد يجامل رغبة المرأة ذات الوجه الدائري والشعر الطليق أسفله، والمرأة تشعر بالمرارة، وتهمس لنفسها: لم حدث كل هذا، هل يمكن أن تزلزلني امرأة محجبة جاءت من الصحراء، لأقتل دلفيني النبيل؟ ولم أنت يا حبيبي تفعل كل هذا، أتشعر أنني أستبدل بحبك العظيم حب غيرك، ألا ترى أنني الآن بقدر حزني تتملكني الغبطة أن أراك غيوراً هكذا، أيعني أنك تعيدني إلى هذا الحد؟ كانت المرأة تتأمل باب الفندق الكهربائي، وهي تتوسط حبيبيها العاشقين.

في لحظة الصمت الأزلية، حيث يتربع الحزن مثل تمثال قط أسود فوق الطاولة، ووجوههم الثلاثة كامدة ومتهدلة، نطق خالد ورأسه متراخ على ظهر الكنبة، متأملاً السقف، جاء صوته مجروحاً وخفيضاً ومتحشرجاً: لا لا لا يا شوارع.. بيروت الحرب اليومية.. يا مدينة يا مخزن هم...! شهقت المرأة غير مصدّقة وقد شبكت أصابع كفيها ببعضها، وحنت جذعها كما يفعل اليابانيون، وهي تشكر الرب وتصرخ: وواااووو! ثم أعادت مقطع الأغنية بصوتها الناعم المنساب مثل ماء، كي تشجعه وتخرجه من صمته المطلق، كان يتأمل بيروت مخزن الهمّ، وقد خرجت في الشوارع وملأت ساحة الشهداء، كان يرى أعضاء حزب المعارضة وهم يتهمون الآخرين في مقتل الحريري، كل شيء كان مخزناً للهم، بيروت وقلبه وبلدة حقل والمدرسة الابتدائية فيها، كان الهم يتراءى

www.10planet.net/vb

كالمناديل الورقية في شوارع تبوك، مدينة الفخّار القديمة، كانت الوحشة على سحنات الوجوه البدوية، أمه في بيتها القديم تنتظر الباب طويلاً، وكلما رأت حذاءي عامل النظافة البنغالي وهما يطوفان بالمكنسة في الشارع ظنت أن خالداً قد جاء في هذه اللحظة تحديداً، وأنه سيطرق الباب الآن، لكنها لا تسمع شيئاً، ولا الماء الأبيض في عينيها يسعفها لترى المكنسة ابلاستيكية الجائلة على عتبة بيتها، هكذا تنتشر الوحشة في الأنحاء، وهكذا يمتد الهمُّ من ساحة الشهداء في بيروت حتى حي السلمانية في تبوك!.

www.10planet.net/vb

(١٣)

• يا شين خلّك ذيب!

لم أصر ذئباً في مفهوم أمي وحرصها، كان خالد يفضي، ولم أقتنص الحياة كما فعل خالي الذي نلهج بذكره أمي دائماً، وهي تقول: أنت عندك قلّة دبرة مثل أبوك! وأنا كنت أنظر أن الحياة تبدأ بخديعة وتنتهي بخديعة، هكذا يجب أن تكون لتصبح ذئباً تلتقط الغنيمة قبل أن تتهافت عليها ذئاب البرّ أو المدينة، لافرق!.

خالي الذي بدأ الحياة بخدعة يتبجّح بها دائماً كتاجر أسطول برّي للنقليات، إذ لم يتمكن قبل أربعين عاماً من اجتياز اختبار رخصة القيادة العمومي الخاصة بسيارات النقل الكبيرة، فلم يدفع رشوة مثلاً، لأن ذلك حرام، فالمرتشي والراشي في النار، فكان أن أعلن في الجريدة اليومية إعلاناً صغيراً بتراب الفلوس عن فقدان رخصته

www.10planet.net/vb

العمومية، وعلى من يجدها أن يسلّمها إلى أقرب مركز شرطة، وهكذا استخدم الإعلان بديلاً عن رخصة القيادة كلما أوقفه رجل مرور أو شرطة، إذ يدّعي أن رخصته مفقودة، وهو ينتظر مرور شهر كي يجدّدها، رغم أن السنوات تمرّ لكن لا أحد يكتشف كذبته وهو لا يحمل سوى قصاصة صغيرة من جريدة قديمة خالية من اليوم والتاريخ!.

كان يقود حافلة نقل من الكويت، ومن بلدن الشام إلى الرياض، ينقل القهوة والهيل والأرزّ، ثم استأجر صديقه الذي يركب معه كمعاون، واشترى له ناقلة أخرى، وبدأت رحلة التوظيف لآخرين، حتى بدأ أسطوله ينمو ويتمدّد، ودخل في شراء الثلاّجات الضخمة، وتخصّص في نقل الخضار والفاكهة من تركيا والشام، هكذا بدأ خالي الذي تراه أمي ذئباً وذكيّاً ومدبّراً، ولم يكتفِ بنقل الخضار والفاكهة والطعام المبرّد، بل كانت ضربته الأخيرة في الحرب الثالثة على العراق، حيث انتشر الخبر كالهشيم في مدينة صغيرة كتبوك، وبلغ مدن الشمال كلها، وكانت الواقعة تفسيراً لارتفاع أسعار المواد المستوردة بعد أن أصاب السوق شحٌّ في الفاكهة والخضار المستورد، إذ فُقد ذات ليل سرّي الكثير من ناقلات الثلاجات التي تخصّ شركة خالي، بعد أن قام بتأجيرها بثمن شهري باهظ للجيش الأميركي، لحفظ جثث الجنود الأميركان قبيل لحظة قصف العراق في الحرب الأخيرة.

هكذا بقي خالي نهّازاً ذئبياً للفرص التاريخية، وبقيت أنا وأبي قليلي دبرة كما ترانا أمي، هكذا نامت جثث الجنود مكان صناديق البرتقال اللبناني والكمثرى السوري، وهكذا انتهت الحرب وعادت الثلاجات برائحة القتلى، ففي المكان الذي نام فيه رجل المارينز ينام

www.10planet.net/vb

الآن صندوق خوخ أو مشمش، لم أستطع لشهور أن آكل ثمرة فاكهة مستوردة وأنا أتخيّل سرداب الثلاجة الطويل البارد متكدّساً بالجثث، لم يفرّق خالي كثيراً بين القتلى والفاكهة، فكلاهما يدرُّ دخلاً معقولاً لشركة النقل التي تخصّه، بل إن صفقة حفظ جثث الجنود قبيل ترحيلهم بالتوابيت إلى أميركا تعد أهم صفقة تجارية في حياته. كم هي صعبة الحياة يا أمي! كم كنتِ بسيطة كقروية نزيهة، وأنت تمسكين رأسك بكلتي يديك ساعة أخبرتك بحكاية الثلاجات تلك: يا دفع البلاء! صرختِ ولم تتناولي بعدها حبّة فاكهة، ولم تستطيعي إيقاف رغبتك العارمة في التقيؤ كلما مرّت سيرة الجثث وهي ملقاة بجوار صناديق الفاكهة والخضار واللحوم!.

خالد كان يحب أمه ويفتقدها كثيراً، لا تكفُّ عن مهاتفته في بلدة حقل، ولا يتوقف هو أيضاً عن زيارتها كل عطلة نهاية أسبوع، ولا يحكي كثيراً عن خاله الذي ترى فيه أمه أهلها وطفولتها.

www.10planet.net/vb

(١٤)

سيارته الكامري اليابانية البيضاء تنطلق مثل قذيفة، إذ عاد دائخاً من مدرسته في حقل إلى أمه في تبوك، كان ذلك قبيل سنوات حيث قاد سيارته منهكاً طوال الطريق حتى مدخل تبوك، إذ اعترضت طريقه سيارة النظافة الصفراء الضخمة، التابعة للبلدية، فما كان منه إلا أن عانقها بعنف، حتى ضجّت الحياة في رأسه، لم يمت، ولم يتسلل الموت إلى دماغه، لكنه غاب ما يقارب الساعة الواحدة، رأى فيها كل شيء: اللحيانيين والأنباط والرومان، والنسّاك في المعابد، والنقّاشين على الصخور، وبنّائي القلاع والبيوت الجبلية، رأى قصر الحمراء قرب تيماء يضجّ بالحياة، أناس يذهبون بسكينة إلى المعبد، وآخرون يسكنون القصر في أقسامه العديدة، رأى القصور في الأنحاء وقد تداخل الزمن في ذاكرته، قصر الحمراء وقصر الرضم وقصر الأبلق والبجيدي، رأى المعبد الروماني النبطي روافة في منطقة حسمى، ورأى نفسه بدثاره وعمامته يدخل المعبد في القرن الثاني

www.10planet.net/vb

قبل الميلاد، رأى الفيضان يجرف البشر والحيوانات والبيوت الحجرية، رأى المعارك والقتلى والمدافن والقبور المنحوتة، رأى نفسه يتمسّح بقبر منحوت ويبكي: أمي! رأى القوافل تمرُّ محمّلةً من الشام إلى اليمن، رأى تجّارها وحرّاسها وأمراءها، وهم يلوّحون نحوه بالتحيّة، رأى نفسه راكضاً في ميناء لوكي كومي، وقد صار نبطياً يعمل حمّالاً مرة، وحجّاراً مرة أخرى.

رأى نفسه وقد تغيّر قليلاً، الوجه ذاته تماماً، لكنه بجناحين أبيضين عظيمين وهو يخفق بهما فوق جبل اللوز، كان يطير متأملاً شجر اللوز منتشراً في أنحاء الجبل، والناس في الأسفل كأحجار يشيرون نحوه بخشوع ورهبة، وبعضهم كان يهرب مرعوباً إلى بيت حجري منحوت في الجبل، كان يحلّق فوق جبال الزيتة مأخوذاً بالألوان والفتنة، حيث القلاع والقصور والهضاب والرمل، كان يهبط شيئاً فشيئاً فيرى النساء الروميات الصفراوات، بصدورهن المكتنزة وهن يعبرن تجاه الساحل ضاحكات.

كانت الساعة تشبه دهراً، إذ غاب عن الآن، وغار في الماضي البعيد رائياً الحياة بضجيجها وصخبها القديم، حيث الساعة بدقائقها الستين تعادل قروناً، كان مسجى فوق السرير الأبيض قبل أن يصحو من الغياب، رأى أمه فوق رأسه مجللة بالغبش، رآها أول مرة رومية من نساء بني الأصفر، ثم تسارعت الساعات والسنوات والقرون، فكانت أمه ذاتها بشالها الأسود للفوف حول رأسها، بوجهها الطويل ومفرق شعرها النحاسي الفائض قليلاً من تحت غطاء رأسها، وبشامتها السوداء فوق الشفة العليا، رآها واضحة فابتسم، وأقبلت تلثم جبينه وتبكي!.

www.10planet.net/vb

• بعد معك ورد! علّق خالد ساخراً.

- ما تعرف إنك في تبوك؟ مدينة الورد؟ قال زميله في المدرسة.

• معقول؟ بدوي وحامل معه باقة ورد؟.

سخر خالد ثانيةً، وضحكا معاً بشدّة، حتى دمعت عينا زميله المدرّس البدوي، وسأله بخبث:

- طيب، تعرف ليه صارت تبوك مدينة الورد؟.

• لا.. أنت تعرف؟.

- أنا أسألك أولاً!.

• يمكن بسبب كثرة امرضى!.

ضحكا ثانية، وأبدى خالد كعادته ضجره من الدعابة المجانية، في أن نصبح دولة تصدّر الورد والقمح، ونحن أكثر بلدان الدنيا عطشاً، ثم ضرب مثالاً عن دولة الأنباط والوضع الاقتصادي فيها:

- أنت ما تقدر أن تتخلص من دراستك للآثار!.

• يا أخي فيه أشياء تذبحك فعلاً! ثم أضاف بعد صمت:

• تخيّل عنواناً صحافياً يقول إننا نصدّر الورد إلى هولندا!.

- يعني نبيع الماء في حارة السقايين!.

• شفت كيف!.

www.10planet.net/vb

(١٥)

بعد أن أمضى سنة في كلية الطب، هرب كارهاً علم التشريح، كان أقرب إلى تشريح جسد القصيدة من تشريح الأرنب أو الإنسان، قال لن أقاوم ذهولي وغثياني وصيامي عن الأكل، أحسّ أن تشريح المكان، صخوره وجراره ونقوشه وعظامه البائدة أحبّ إليه من لون الدم، أحس أن قراءة الوثائق التاريخية ومعرفة تحولات الكائن أكثر متعة من عيني مريض يستنجد به قبيل دخوله تحت سطوة المخدر في غرفة العمليات.

كان حلمه حين أنجز بحث التخرج في آثار تبوك وتيماء والعلا ومدن الساحل الشمالية أن يصبح عالم آثار مختصّاً، لكن الحياة جعلت منه مدرّس جغرافيا لتلاميذ الابتدائية، سلّم بالأمر وقال لنفسه عليّ أن أعيش أولاً، وأمارس ما أحبُّ وأهوى ثانياً، أقوم بجولات في المناطق الأثرية، أنبش في «حجر» و«ديدان» عن عالم

www.10planet.net/vb

الأنباط ودولتهم العظيمة، وأعرف عنهم أكثر مما أعرف عن زراعة الورد أو الانتخابات البلدية المضحكة، أغوص ليلاً في دواوين محمود درويش وسعدي يوسف أكثر مما أقرأ صفحات الرياضة والثقافة في صحفنا البليدة!.

طفولته كانت منسيَّة، لم يحب تبوك كثيراً، ربما لأنها ارتبطت بالمدرسة، أو ربما لأنه أحبَّ جدَّه أكثر من أبيه، فقرَّر أن يقضي كل الإجازات في بيت جدِّه بحفل، مع زوجة الجدِّ الأحدث سنّاً، كانت حياة الساحل لا تُنسى، مع صغار لم يزل يتذكرهم، بل كتب عنهم في قصائده مراراً، وأهدى إلى صاحبه محمود الفلسطيني مجموعته الشعرية الأولى، رغم أنه لم يعد يعرف عنه شيئاً، منذ تهجيره القسري مع أسرته إلى عمَّان غداة حرب الخليج الثانية، حيث تم تهجير الفلسطينيين والأردنيين واليمانيين إثر مواقف حكوماتهم. كانت قصيدته تتجه نحو التفاصيل اليومية الصغيرة: الزعتر البلدي وزيتون نابلس في بيت أم محمود، جدَّته التي تصنع له ولمحمود آيسكريم التوت الأحمر في أكياس النايلون، فيقرضان كفأرين طرفي الكمسين الصغيرين ويمصَّان التوت الثلجي، حتى تتحوَّل شمس بلدة حفل اللاهية صيفاً إلى فردوس منعش.

لأكثر من خمسين عاماً كانت أم محمود تحتفظ بمفتاح بيتها في رام الله، إذ أخرجه محمود مرتبكاً ذات عصرٍ من خزانة خشبية عتيقة، وأراه لصاحبه خالد مؤكداً أنه سيأخذه معه إلى بيتهم في رام الله، كي يرى شجرة الزيتون الكبيرة في باحة الدار. كان المفتاح عتيقاً وصدئاً، لكن عيني محمود كانتا تلمعان حين أخرجه باضطراب وهو ينظر نحو باب الغرفة كل فينة.

في صباح جمعة نعس ومتثائب استيقظا مثل لصَّين صغيرين، نظر

www.10planet.net/vb

محمود إلى أطراف الشارع وهما يقفان عند باب الجدِّ، وسأله عمَّا إذا كان أحضر الحاجة، هزَّ خالد رأسه وهو يلمس بطنه المنتفخ بانتصار، ذكر له أنه سرقه منذ الليل، حين أخلد جدُّه وزوجته إلى النوم مبكرين، وأخفاه معه تحت الشرشف، وحين سمع جدَّه يهلل عائداً من صلاة الفجر، وركله بقدمه كي يصلّي، قام أمامه ولم يدخل الحمام إلا بعد أن غاب الجدُّ في نومة الصفرة، حتى طلوع الشمس الصفراء كالحفول. مشيا معاً متكاتفين، وهما منذوران بمتعة نادرة واكتشاف مثير، اتخذا تلاً صغيراً مرتفعاً قرب البحر، جلسا مذهولين بلون البحر المضروب باصفرار الشمس، فتح خالد أزرار ثوبه الصيفي الأبيض، وأدخل يده في العمق، مثلما يفعل حاوٍ أو لاعب سيرك، كان كمن سيخرج حمامة بيضاء ويطلقها في سماء البحر الصافية، لكنه حرَّر كيساً خاماً صغيراً حائل اللون من مطاط سرواله الأبيض الطويل، وفتح فم الكيس المعقود بحبل، وانتشل المنظار الروسي العتيق الذي يحتفظ به الجدُّ، أدار عينيه السحريتين بمتعة وتعالم على زميله الفلسطيني، ثم ثبّته على عينيه الصغيرتين بعد أن قصَّر المسافة بين العدستين حتى تتطابقا مع عينيه، ونظر في الأفق: يا الله! كان يصرخ مذهولاً، ثم يزيح المنظار السحري عن عينيه، وينظر بعينيه مجرَّدتين فلا يرى شيئاً، كان محمود بجواره يحترق شغفاً وأسئلة، وهو يحاول أن يجذبه من على عينيه كي يرى.

جنود إسرائيليون يحومون في دورية على الحدود في سيناء، جندي يتشمّس فوق دبابته ويدخّن سيجارة الصبح، ثلاثة يجلسون حول طاولة بيضاء في الهواء الطلق كما لو كانوا يتناولون طعاماً، هكذا كانت أعينهم الصغيرة مشدوهة بغرابة، وهي تترصَّد الحياة اليومية على الساحل الغربي لخليج العقبة.

www.10planet.net/vb

(١٦)

نهضوا ثلاثتهم من المقاعد الصوفية الوثيرة في بهو فندق شيراتون القاهرة، قبيل أن ينفلق فجر الدقّي، في المصعد لم يكن أيٌّ منهم ينظر نحو الآخر، توقف عند الطابق الأول، فخرجت المرأة بتنهيدة أتبعتها بصوت مجروح، ذلك الصوت الذي يتبع عادةً الصمت الثقيل: تصبحون على خير! فأجابها أحمد بصوته الحيوي، كالصوت الذي عاد توّاً من المقبرة، ولم ينماه مع الحزن إلّا بما تقتضيه الحاجة تماماً.

انغلق المصعد عليهما، وكان الصمت يقف بينهما مثل كلب مريض، انفلق الباب في الطابق الثالث كثمرة خلاص، فخرج خالد اللحياني بطيئاً ومهزوماً: تصبح على خير! قالها تحت وطأة شعوره بالذنب، لِمَ فعلتَ كل ذلك؟ لم قتلت فرحتنا الليلية؟ كان يمكن أن تقلب الموضوع إلى مجرّد مزاح عابر، أن تطلب منه بذكاء وإشارة:

www.10planet.net/vb

لا تمسك يد خطيبتي! أو بمزاح أثقل قليلاً: ما يصير تتعلّق بيد المدام يا أستاذ! أو كنت أكثر جنوناً بأن طلبت من سائق الأجرة أن يتوقف جانباً، ثم تهبط من المقعد الأمامي، وتركب معهما وتستلم دلفين حبيبتك، ووجهها وصدرها، بل تعانقها أمامه، قد يكون سلوك كهذا صعباً ومحرجاً لها، قد لا تعرف أنت مدى علاقتها بصديقك أحمد، قد تبدو لك أشبه بعلاقة الأب الذي يهب الوصايا والحكم والحنان أحياناً، لكنها قد تكون اتخذت خطّاً مغايراً لا تعرفه أنت، لم تتعرّف سوى على السطح، أما العمق فهو مكتوم ومعتم، حتى بينهما.

خرج خالد من المصعد وانعطف يميناً مسرعاً، لكنه ما إن سمع انصفاق ضلفتي المصعد، حتى نكص مرة أخرى، ووقف أمام باب المصعد متأملاً المربعات الزجاجية أعلاه، والتي تحمل أرقام الطوابق الخمسة عشر، كان الضوء مشعلاً عند المربع الرابع، ثم ما لبث أن انطفأ وتتالت المربعات الصغيرة تضيء أنوارها تباعاً، الثالث فالثاني فالأول ثم الأرضي، كان قلبه توقف حين أضاء الطابق الأول، كان سيسقط على الأرض لو بقي النور مشعلاً عند الطابق الأول، ليتخيّل صاحبه يهبط مهرولاً صوب غرفتها، ثم ناقراً الباب بهدوء، فتنظر هي من العين السحرية للباب، وتفتح، فيضحكان بصخب في ذروة العناق، كاد أن يبكي حين طاشت به المخيّلة إلى هذا الحد.

كم فكّر أن يضغط زر سهم النزول للمصعد، حتى يتوقف عند الطابق الثالث حيث ينتظر، كي يتأكد أن المصعد كان خالياً، لكنه تراجع مراراً، وهو يتخيّل صاحبه يمارس الشكّ ذاته، فيقف أمام المصعد في الطابق الرابع، ليتأكد أنه لن يتوقف مرتين، مرة عند الطابق الثالث حتى يركب رجل قصير وشاعر مجنون أهلكه الحبّ

www.10planet.net/vb

والشك، ثم يتوقف مرة ثانية عند الطابق الأول ليخرج صاحبه الشاعر مهرولاً، حتى الغرفة ١١٩ متوقفاً عند بابها، وناقراً بعقلة إصبعه الوسطى، ثم داخلاً في غيم امرأة سمراء عاشقة، لها عينان تبوحان دوماً بالسرّ، لتعانقه طويلاً، ويذوب جسدها الممشوق بين ذراعيه، فيمطر وجهها بالقبلات، على جبينها، ثم على شفتيها المكتنزتين، ويميل بفمه إلى خدها ورأس أنفها، لكنها تزعق: لا! وتمنعه حين يهمّ بتقبيل عينيها: بوسة العين تفرّق الأحبة! ثم تتخلّص منه وتقف أمام المرآة تعيد رسم شفتيها بإصبع روج داكن وهي تدندن بلهجة مصرية: بلاش تبوسني في عيني.. دا البوسة في العين تفرق!.

خالد كان يحبُّ الأساطير، يقرأ بنهم في أساطير شعوب العالم، بل إن طفولته اعتمدت على أساطير وخرافات كانت تقوده إلى فردوس لا مرئي، كذلك آمنة التي امتلأت ذاكرتها الصغيرة بأساطير الرمل والبحر، كانا يدخلان الأسطورة في مناطق غائرة في الذاكرة، حيث اللاوعي، ولا يجادلانها علمياً أو تحليلياً كما يفعل صاحبهما أحمد عاشق دريدا وفوكو وباشلار، وهو يسائل الأسطورة ويفكّكها إلى شظايا، ويناقشها بطريقة علمية جافة أحياناً.

www.10planet.net/vb

(٧)

في غرفته بالطابق الثالث بكى الشاعر حتى أربك الفراشات الصغيرة الصفراء على ستارة النافذة، بكى حتى رأى قلبه يتخبّط بجواره على الصوفا، رمى قميصه البحري على الطاولة، ونزع بنطلونه الكحلي على المقعد ذي الظهر الطويل، وقف أمام النيل شبه عارٍ وبكى، نظر نحو الهاتف النائم كقطة رومية مطمئنة، فكّر أن يهاتفها كما كل ليلة، ليطمئن أنها دخلت غرفتها بأمان، لتسحره بضحكتها المجنونة: وصلت يا فطُّوم! وتقول له إن أمها تؤكد عليها أنْ تهاتفها من أيِّ مكان حين تضطر إلى التأخر عن البيت ليلاً.

هل كنت تطمئن عليها إن كانت قد وصلت غرفتها دون أن يضايقها أحد، أو يتحرَّش بها أحد في الممرات؟ أم كان الشكُّ يقرض جسدك الذابل كرغيف؟ هل يمكن أن تغادر غرفتها على وجه الفجر، وتمضي إلى غرفة صاحبك على أطراف أصابعها، أو

www.10planet.net/vb

أنها تدعوه إلى غرفتها، وتشير نحوه بسبابتها: هششششش! فيصمت هو أمام رنّة اتصالك الليلي الغبي! وهما يعرفان أنك ستهاتفها ليلاً، فمن الأفضل أن يبقيا في غرفتها حتى تدخل في نوبة نوم مهلكة، خصوصاً أن كلاً منهما يحرّض الآخر على مزيد من السهر، حتى يدفعا الليل إلى آخره، فتذهب أنت في النوم كقتيل، وتصحو صباحاً في الثامنة، لكنك تضطر إلى انتظارهما حتى العاشرة أو الحادية عشرة أحياناً، هل سهرا من بعدك؟ كان خالد مشوّش الذهن كثيراً، وهو يحرّض شكوكه بأن عناق الأيدي بالطريقة التي رأيتها توحي أنها جاءت بعد إيحاءات طويلة، ألم تقطع المحيط والبحر والصحراء كي تمسك يدها الصغيرة كدلفين في ظلام الميني باص؟ هل دخل صاحبك هذا السفر والنصَب الطويل كي يفعل مثلك؟ أم أنه بادر بجرأة وفجاجة علنية، كما يفعل حين يسألها: كم مرة أحببتِ؟ كان السؤال يهبط على غرّتها كحجر، فتتلعثم وتبتسم بخفر وتراوغ طويلاً وهي تنظر في عينيك الوالهتين.

هل كنت ساذجاً حين تودع صوتها ليلاً، وتأمرها أن تلقي سماعة الهاتف جانباً حتى تتلافى الاتصالات الخاطفة آخر الليل؟ هل تبحث وقتها عن راحتها، أم تهيئ لها المناخ الأكثر هدوءاً مع صاحبك الطويل! كنت تفكر أحياناً بخبث، أن انشغال الخط في غرفتها قد يجعل صاحبك يتألم كل الليل، وهو يحاول أن يتصل لأي سبب كان، كأن يسأل عن موعد إفطارها صباحاً، فيباغته الرنين المتقطّع طوال الليل، ليجزم أنكما تنادمان بعضكما في الليل حتى بياض الفجر، وانطلاق صوت المؤذن، وأبواق السيارات الصباحية، وهذا يؤكده اتصاله ليل أمس، حين باغتك صوته مفتعلاً السؤال عن أوراق دوّن عليها ملاحظات نقدية يريد الكتابة عنها، يسأل عما إذا كانت معك، أم نسيها في الحسين أم على تابلوه التاكسي، هل كان

www.10planet.net/vb

يريد أن يتأكد من إشغال خط غرفتك الهاتفي، أم يريد أن يطمئن أنك موجود داخل غرفتك ولم تطر مثل ساحر من «بهلا» صوب الطابق الأول، لتدخل من النافذة، وليس من الباب كما يفعل الناس العاديون.

كانا محمَّلين بالشكّ، أحدهما تأكل الغيرة أطرافه كل ليلة، والآخر يبدو كما لو يخشى على قلب صديقته مرة، وعلى قلب معشوقته مرة أخرى، فمرّة يظهر كأب، وأخرى يظهر كعاشق، أما هي فكانت تلتبس عليها المسائل كثيراً، ولا تعرف أيهما تعشق، وأيهما تحبّ كصديق، بل أحياناً تشعر أنها تعشقهما معاً، وتقول لأحمد حين أرخى أسئلته عن زوجها المنتظر في البلد، إنها قالت له إنها تريد ربع زوج، وستبحث عن ثلاثة أرباع آخرين، ثم تضحك وتضع يدها على فمها الساحر، أنتما الربعان الآن، وكل من أجد منه الحبَّ والدلال سأرفع نصيبه إلى النصف، فيضحكون، ويتنافس العاشقان ضحكاً وهما يبتاعان لها وروداً من الصبيَّة التي تلاحقهما على كورنيش النيل: ربنا يهدي سرّكم لبعض! ويضحك خالد بغبطة إذ يسألها: أنا والا هو؟ فنجيب بحذق: أنت يا بيه، دا أنت أمير، وهي أميرتك! فينفحها ورقة بعشرة جنيهات وهو يخرج لسانه مغيظاً صاحبه الذي تظهر غمازتاه الساحرتان لحظة ابتسامته الوديعة.

www.10planet.net/vb

(١٨)

لم يكن سهلاً أن ينام دون أن يطمئن عليها، كان صوتها ملهوفاً في الهاتف: إش فيك حبيبي؟ كانت تسأل وقلبها يخبط الجدران بعنف، كان قلبها كطير يتدافع في أنحاء الغرفة، بحثاً عن الخلاص، أما هو فقد فكر أن يرمي قلبه في كرسي الحمام ويغرقه بماء السيفون، لكنه رأى أن يقتل الصمت الذي نهش قلبه ليلاً كاملاً، أسماه فيما بعد: ليل الثلاثاء الأسود!.

حين سمع صوتها ولهفتها وخوفها من قراره المحتمل بأن ينسحب من حياتها، لم يملك سوى أن بكى، كان يبكي بخفوت، يبكي بطريقة تشبه صمته، لكن النهنهات تصل إلى سمعها، فتبكي هي بدورها بعمق، تبكي متبوعة بالآهات، كان نشيجها يخرق سويداء قلبه.

www.10planet.net/vb

لماذا خرجتِ من القاعة وأنا أقرأ قصيدتي، لماذا جعلت بصري يطيش في الأرجاء وفي الوجوه بحثاً عنك، لماذا خرجتِ معه وتركتماني وحدي، لماذا ذهبت معه في تاكسي وحيدين، وهل ركوبه بجوارك حين انسللتما من القاعة، وتماس جسديكما في المقعد الخلفي معاً، وضحكاتكما حين هاتفتني من هاتفه الجوّال، واستلامه لدلفينك الصغير، أو دلفيني القرنفلي، هو ما جعله فيما بعد لا يتنازل عن مقعده خلفاً، ولا يعود إلى مقعده الأمامي، حيث دوره كأب أو كدليل سياحي مثلاً؟ أو كصديق لنا معاً؟ هل كنتِ أيضاً معه، تدبران المكائد وتخططان لقتل قلبي الهشّ الواهن، قلبي الذي أنهكه عشقك الأبدي؟ كان يسأل بصوت مجلل بالدمع والحزن والهلاك.

هل كنت تعرفها من قبل؟ هل يمكن أن تكون جاءت هكذا صدفةً؟ ألم ترى عينيها السوداوين بكحلهما الثقيل وهما تكادان تلتهمانك؟ ألم تحسَّ بي؟ ألم تفكر كيف دارت بي الدنيا وأنت تقدمها لي ككاتبة قصة من بلدك؟ كم شعرت بالانهيار وأنت تقدمني كامرأة عابرة، كصحافية وشاعرة من الإمارات؟ كنت محايداً في كلامك بطريقة قاتلة، حتى حروف اسمي تساقطت من فمك ككلاب مريضة، شعرت فجأةً أنني خارج حياتك، وأن الدلفين القرنفلي تحوَّل إلى فأر رمادي مذعور، كنت فعلاً مذعورة وأنا أنسحب منكما متَّخذة كرسياً قرب الباب، كنت أزمع الهرب أول ما تنطلق الأمسية، فطلبت من أحمد أن نخرج كي نشمَّ الهواء في الشارع، وقابلنا أصدقاء يعرفونه، ثم تحدثنا قليلاً واقفين، كانوا يضحكون بصخب، وأنا ألتفت كل فينة نحو مبنى القاعة، وصوتك يلاحقني مجروحاً ومفزوعاً بالغياب.

www.10planet.net/vb

كانت آمنة المشيري تسحل روحها عبر الطوابق وأسلاك الهاتف! ظلا يبكيان حتى لمع قرص الشمس من وراء النيل، ليغسل بعض حزنه وبعض وحدتها، قالت إنها فرحة رغم بكائها ونشيجها المرّ، فهي عرفت أنه يحبها كثيراً، وتأكل الغيرة أصابعه وقلبه، تقول ذلك وهي تضحك بانتصار، تلك الضحكة المصحوبة بالنشيج الخافت.

أما هو فكان يأكله الندم، فكيف قتل صاحبه ومتعته بصمته المهيب، صمته المعترض على كل شيء، قال لها لماذا لم أدُس على قلبي المريض وأضحك معكما، وأمرّر المسألة المقلقة لي، وقالت أعدك أن أحفظ دلفيني أبداً عن شباك الصيادين ورماح البحّارة! عارضها أنني لا أريد أن أدخل الوسوسة والعقد إلى قلبك الصغير وعقلك الحرّ، لكنني رغماً عني أصاب بالجنون وأنا أرى أحدهم يعانق دلفينك بشوق! آه يا دلفيني الصغير!.

كان يفكّر ويسأل بحرقة: هل عرف أحمد لماذا دهمتني نوبة الصمت هذه؟ هل عرف أنني أحبك بصدق، أحبك إلى هذا الحد؟ بينما تسأل هي بحزن: هل سأدمّر صداقتكما إلى الأبد؟ اتفقا أن يسهرا غداً كما الليلة قبل الماضية، مساء لإثنين، قالا لا بد أن نغسل الثلاثاء الأسود بالفرح والحب والمتعة الفائضة.

www.10planet.net/vb

(١٩)

كانت مأخوذة بحساسيته المفرطة، كانت آمنة تقول: كيف لك كل هذا الشعور المرعب، كيف تفكر هكذا بصاحبك، وأنك قتلته بصمتك، كيف ظللت تلوم نفسك طوال الليل والنهار التالي، كيف فزعت صباحاً باكراً وهاتفته في غرفته ليتناول معك الإفطار؟

لم تكن غرفته الصغيرة المملوءة بصور الدلافين في بلدة حقل تخلو من الموسيقى العذبة كل صباح، كان يجعل الصوت خفيضاً جداً، ويتردَّد كثيراً أن يفتح درج الكومودينو بجوار سريره، كي يخرج نظارتي القراءة، لا يعرف كيف يفتح الدرج ولا يحدث صوتاً، رغم أنه لا يسكن معه أحد في غرفته، الملحق بها ركن مطبخ صغير بكاونتر رخامي وحمام فحسب، هل كان يخشى أن يفزع القطط المنقوشة على ستارة النافذة، أم لا يريد أن يوقظ نبات الظل في الركن، أم كان ينام حوله ملاك أو جنّي أو ما شابه ذلك، فلا يريد أن يوقظه!.

www.10planet.net/vb

حين يضطر إلى أن يذهب إلى الحمام لا يلبس خفَّي الحمام حتى لا يحدث صوت خمشهما على السيراميك صوتاً، ولا يغلق الباب وراءه حتى لا يثز، حتى ضاغط المصباح لا يهمزه كي لا يحدث صوتاً لحظة انبلاج الضوء، كان يخمّن بساقيه العاريتين مكان فتحة كرسي الحمام في الظلام، ويطلق بوْله بحذر، محاولاً ألاَّ يرتطم الخيط المنساب بسطح الماء الذي يغمر عمق لكرسي حتى منتصفه كي لا يحدث صوتاً، بل يوجّه خيط البول المتدفّق نحو الحواف الداخلية لكرسي الخزف، ويأخذ قطرة واحدة أو قطرتين من رشّاش الماء كي يمسّ بهما رأس عضوه، قبل أن يمشي خفيفاً كملاك وهو ينظر بجوار مجلى الصحون صوب قفص طائري الحبِّ الملونين، فيطمئن إلى أنه لم يوقظهما.

كانت المسألة تصبح أكثر تعقيداً من قضية الشرق الأوسط ذاتها، حين تُحدِقُ به شهوةُ الشاي الثقيل في جوف الليل، فإعداد الشاي يوجب الحركة والقرقعة وانسياب الماء وخربشة الفنجان داخل علبة السكّر، وفرقعة زناد شعلة النار، وصوت اللهب، وغليان الماء وفورانه على الحواف، هذا إذا لم يصحب الأمر بعض الأخطاء كسقوط ملعقة قياس الشاي، أو حتى سقوط الفنجان من يده صوب سيراميك أرضية المطبخ. كيف سيحدث كل ذلك مقابل أن يُبقي طائري الحبِّ الملونين غارقين في نومهما؟ أحدهما يضع منقاره المعقوف الصغير في ريش عنق أنثاه؟

لا يعرف كيف أخطأ ذات ليل، بأن أشعل سهواً مصباح الصالة الصغيرة، فاندلق الضوء في الأنحاء كالصباح، ليستيقظ ذكر طير الحبِّ نافضاً ريشه، وهو يطلق تغريدة قصيرة موقظاً أنثاه التي ينتشر في جسدها الأصفر والأخضر في تناسق يشبه الطبيعة، هكذا

www.10planet.net/vb

انعطف سريعاً مرتبكاً كأنما ارتكب جريرة كبرى، قلل الضوء وانتظر ما يقارب عشرين دقيقة مقرفصاً في ركن المطبخ، وهو ينصت لخبط الأجنحة الصغيرة في الظلام، حتى هدأت تماماً ودخلت في النوم، فمضى يسحب رجليه الخفيفتين، كأنما ملاك يمشي بقدمين حافيتين في الجنّة.

لم تكن مسألة عادية حين فوجئ بموت الأنثى في القفص، كاد أن يهلك حزناً، غاب ثلاثة أيام عن تلاميذه، وكاد أن يطرد من عمله، حاول أن يعاقب نفسه وإهماله بملازمة الذكر الأرمل ومواساته، بينما عاش هذا الطائر الصغير لوحده أسبوعاً من الصمت.

آه يا للصمت الذي جعل الطائر أخرس، بل نادر الحركة على غير عادته، فقط كان صامتاً وواجماً، مأخوذاً بالوحدة والحزن والفراغ، كان ينظر نحو النافذة في النهار، كان يبكي بصمت، أقسم خالد لزميله أن الطيور تحسُّ أكثر من البشر، وأن هالة من البياض ظهرت بوضوح حول عينيه، حتى قرّر خالد أن يأخذه ذات صباح إلى الشاطئ الرملي، ووضع القفص فوق مقصورة سيارته، ثم فتح الباب له، لكنه لم ينتبه إلى الباب المفتوح، فخلع شبك القفص، ولم تبقَ سوى القاعدة البلاستيكية الصفراء، فقفز الطائر الأرمل فوق رأس الشبك المجاور المخلوع، ونظر لوهلة نحو الأرجاء، ثم خفق بجناحيه الصغيرين غرباً نحو خليج العقبة، ما لبث أن انعطف يميناً صوب الشمال، كأنما سيكون الأزرق الكحلي هو بوصلته، كأنما سيبحث عن أنثاه في الناصرة أو يافا أو الخليل، كأنما حواسه تقوده إلى رائحة البارود والرصاص، ليبحث عن أنثاه الشهيدة.

www.10planet.net/vb

(٢٠)

كانوا نهار الإثنين يكادون أن يطيروا من الخفّة في شوارع القاهرة، بعد أن انتهى بهم شارع قصر النيل إلى ميدان طلعت حرب، كانت صرخات المتظاهرين تملأ المكان، وهم يطلّون من شرفة مبنى حزب الغد، معلّقين لافتات عليها صور أيمن نور واسمه، وقفوا لوهلة قبالة الهتافات مع آخرين، ما لبثوا أن انعطفوا داخل مكتبة الشروق يتقدمهم أحمد، الذي دخل إلى عمق المكتبة، باحثاً عن عنوان كتاب نقدي.

بقي خالد يتأمل هتافات المتظاهرين الذين يطالبون بإطلاق سراح زعيم الحزب، المحبوس بقضية تزوير وثائق رسمية، والذي قال إنه قضى أول عشرين ساعة في قبو تحت الأرض، كان خالد ينظر بدهشة إلى المتظاهرين وهتاف قائدهم بمكبّر الصوت، وهو يتذكّر أول مرة يرى مظاهرة على الطبيعة أمام مبنى البرلمان في لندن،

www.10planet.net/vb

وقوات مكافحة الشغب تقف بتحفُّز، مصحوبة بسيارة إسعاف وسيارتي إطفاء، كان مذهولاً كما هو الآن، وهو يتخيَّل بشراً يمشون في طرقات وميادين تبوك، سألته آمنة وقد وضعت يدها على كتفه: كنت أتخيَّل الناس يقفون ويحملون اللافتات ليعبّروا عن موقف أو يطالبوا بحق. أجابت آمنة: إنها أبسط طريقة لمن ليس لديهم منابر أو وسائل للتعبير! خرج الثلاثة إلى الميدان، وتساءل أحمد عمّا يتحدَّثان، إذ وجدهما يتحاوران بجدِّية، ثم علَّق بخبث:

• أنت لا يمكن أن تتظاهر!.

- كيف حكمت يا دريدا؟ سأل خالد ساخراً.

• قبل سنة رفضت توقيع بيان مطالبة بإطلاق سراح زميلك!.

- هذي مسألة شخصية! ثم أضاف خالد بحنَّة:

- بعدين أنت خارج الكان، ولا تفهم الملابسات!.

غيَّرت آمنة الموضوع وقد أمسكت بيديهما عابرة الميدان من جهة شارع طلعت حرب، مروراً بمقهى جروبي، لتمضي إلى الطرف الآخر من شارع قصر النيل، طالبة أن تبحث عن متجر لبيع الأدوات الموسيقية. زميلتي أرسلت لي رسالة قصيرة في الجوَّال تطلب أن أحضر لها هارمونيكا، أظن أنها موجودة في طرف الشارع. قالت لهما.

لم يدخل مساحات الشعراء المتكسِّبين من شعرهم، ولم يدر بذهنه أن يكتب قصيدة مديح في أحد الوجهاء، أو أن يبيع شيئاً من شعره إلى الأثرياء الذين حققوا كل شيء، ولم يتبق لهم سوى أن يصبحوا شعراء، كان يسأل نفسه، صحيح أنني ظللت في الحياد عن كثير

www.10planet.net/vb

من القضايا في البلد، لكن لماذا لم أجرؤ على التوقيع في موقع إلكتروني دفاعاً عن زميلي الشاعر المعتقل، هل لأنني لا أحب نظرته ومنطقه نحو الإصلاح كما أدّعي دائماً، هل هو شعوري أنه يبحث عن المجد في السياسة حين لم يجده في الشعر، أم هو خوفي من السجن؟ لماذا لا أقول إنني أحب الحرّية مثلاً، ولا أحب أن أكون معتقلاً بين أربعة جدران، وهل أنا حرٌّ الآن؟ ألست مقيّداً من الكلام؟ أليس بقاء لساني مثل عظم بائد داخل فمي هو سجن كبير، أليس العالم كله مجرّد سجن مزيّن بأشجار وبيوت ومدارس وعربات وشوارع وجرائد وخطب؟.

لا، لا تراوغ يا خالد! جذبته آمنة فجأة من ذراعه وقد كادت أن تدهسه سيارة أجرة من نوع بيجو قديمة، فصبّ السائق على ظهره سيل شتائم. كان خالد يفكر، لماذا يبقى وقتاً طويلاً يراجع فيه حواره مع الآخرين، ويندم دائماً لائماً نفسه: لماذا لم تقل كذا! لماذا صمتَّ حيال هذه النقطة، أو لماذا راوغت هكذا؟ تلك طريقة سخيفة يا خالد للهروب، كان يمكن أن تقول كذا، كان يمكن أن تعترف أنك جبان، طزّ! جبان وابن ستين جبان! ليس ضرورياً أن تقول إن الشعر هو فن، وليس خطاباً سياسياً، أو تردّد في حواراتك: يجب أن يبقى الشعر مستقلاً عن لوثة السياسة القذرة، بل قل إنني أكره السياسة، أو أنا أخاف من لعبة السياسة، أو أنا جبان وكفى! اللعنة!.

ظلت يده في يد آمنة وهي تقوده حتى وجد نفسه يدخل إلى مطعم فلفلة قبيل ميدان التحرير، ويقف معهما أمام المحاسب، ليطلب ساندويتش شيش، بينما طلب أحمد اثنين كشري لهما، ووقفا يلتهمان ويضحكان، وهو ينتظر ويغيب.

www.10planet.net/vb

هل عليَّ أن أكون مخلِّصاً؟ أن أتحوَّل إلى كبش فداء حتى أصبح شاعراً عظيماً؟ هل لابدَّ أن أدخل معتقلاً حتى أكتب قصائدي من السجن وأنشرها في أنحاء العالم؟ وهل نجاح قصيدتي سيحكمه آنذاك جمالها الفني أم خطابها السياسي وظروف اعتقالها؟ أليس معظم شعراء العالم الذين غيَّروا خارطة الشعر لم يدخلوا معتقلات ولم يصبحوا بوهيميين! لماذا عليَّ أن أكون فوضوياً وبوهيمياً حتى يوقن الناس أنني شاعر حقيقي؟ لم لا ينظر الناس إلى قصائدي وليس إلى شخصي وسلوكي؟ لا أريد أن أمثِّل وأتلبَّس شخصية ما، لا أحب أن أكون مزيَّفاً، أو تكراراً لأحد، ليس بالضرورة أن أكون رامبو، وأن يعشقني فرلين، وأن أكون ضائعاً وصعلوكاً، لأترك الشعر في سن مبكرة، مهاجراً في الأنحاء، مريضاً في ذروة شبابي، راكضاً صوب موت مبكر!.

اللعنة عليك يا أحمد، كيف جعلتني أتوه من أنثى الدلفين التي تضاجع دلفيني طوال شارع التحرير باتجاه كورنيش النيل! كيف أقصيتني عن الحياة التي يضخُّها الدلفين الفرنفلي وهو يضاجع دلفيني على مرأى من المارَّة!.

www.10planet.net/vb

(٢١)

صباح الرياض ساخن وثقيل جدّاً، غبار يهبط بصفاقة حتى الرجلين، فكأنما الناس والسيارات تخوض في غبار عميم، حتى البنايات العالية ذابت رؤوسها في الغبار الجاثم مثل غول هلامي الملامح، طريق الملك فهد تجاه الجنوب خفيف على غير العادة سلكتْ مخرج قصر الحكم والصفاة والمحكمة الكبرى، عند الإشارة شحاذة عجوز تحمل طفلاً غزير الشعر ومتّسخه، بثوب صوف عتيق رغم حرارة الطقس، على رصيف متنزه سلام جلس عمّال يومية باكستانيون وأفغان بملابسهم البنجابية وهم يحملون فُرش الدهان وأدوات لياسة الجدران والبناء، معهد إمام الدعوة بمبناه العتيق لم يتغيّر، مثلما دخلته ذات مرة مع قريبي، وهو يسحب ملف دراسته هارباً إلى متوسطة ابن زيدون، الباب المتطامن والحمام يحط على شرفاته، مبنى المحكمة الجديد ذو الحجر الأصفر يقف شامخاً، بنوافذه الطولية الضيّقة جداً، تلك التي لا تتسع حتى لرأس يحلم أن يفرض ويصرخ، مواقف

www.10planet.net/vb

السيارت مشغولة تماماً، أوقفت سيارتي الهونداي الصغيرة، وقبل أن أنزل قلبت فاتورة الهاتف المحمول على ظهرها حتى لا يظهر اسمي لأحد يتجوّل بين السيارات ويدوّن الأسماء، كنت خائفاً وقلقاً، حلمت أن أكسر حاجز الخوف، كان الحرس يحيطون بحواف الميدان المزدان بالنخيل والشجر المقصوص بعناية، لا أحد يدخل إلا بأوراق معاملة أو قضية أو استدعاء، كان في الجهة البعيدة المقابلة للبوابة الجنوبية عدد من الرجال والنساء يجلسون على المصاطب الحجرية تحت ظل الشجر ينتظرون المحاكمة السرّية، رجل خمسيني يشرب شاياً، وشاب يرشف قهوة من دانكن دونات، لم أكن وحدي الذي يلبس نظارات شمسية داكنة، بل كثيرون يخفون أعينهم خلف السواد، والبعض الآخر يخفي وجهه وراء جريدة، صحافي بريطاني يحمل أوراقاً، ويصعد فوق حافة الحديقة ويعدّ المتجمهرين بطريقة مباشرة، صحافي ياباني يتأمل المكان بعينيه الضيقتين وينتظر السماح له بالدخول، في آخر المصاطب الحجرية جهة الشارع المفضي لشوارع طينية تجلس تسع نساء منقّبات، كن يحدّقن بالشجر العالي وينتظرن معجزة السماء، شابة محجّبة ترتدي نظارتين شمسيتين سوداوين تتنقّل بخفّة ورشاقة وتحاول كل فينة أن تجذب بيدها العباءة السوداء لتخفي بنطلون الجينز الكحلي.

أقبل الملازم الوسيم وطلب من المتجمهرين التقهقر قليلاً، كان لطيفاً متفهّماً، قال له الخمسيني: والله لو معنا درابيل ماشفنا الدور السابع! ضحك الملازم: هذي أوامر، الله يرضى عليك! أخذه الخمسيني على حدة وأوضح له أن وقوف الناس هو وقوف سلمي، وأنهم لا يملكون سوى الصمت والدعاء والانتظار، همس له الملازم أن الكل يتمنى أن يخلص الموضوع ويفرج عنهم.

www.10planet.net/vb

بعد لحظات جاء شرطي برتبة لواء، كان ممتلئاً وحاسماً، دفع الناس بحسم: يا الله توكلوا على الله.. روحوا أشغالكم! ضحك شاب عشريني بفم مائل قليلاً: دجاج؟! كان الشرطي بشاربه الكثّ يهشُّ الناس بيديه: اللي ما عنده معاملة يا جماعة يتوكل على الله! دفع الرجال إلى ما وراء المصاطب الحجرية التي جلست عليها النساء، في حين بقيت النساء في مكانهن يتأملن الفراغ وينتظرن الأمل!.

على الرصيف المحاذي للمحكمة مشيت وجعلت أتأمل المحلات في الجانب الآخر من الشارع: محل المشالح الملكية، مكاتب تحصيل الديون، مكتب عقاري، مكاتب المحامين، محل بوفيه مزدحم بمراجعي المحكمة والمنتظرين خصومهم، محل تصوير أوراق ومستندات، مكاتب وكالات الإعلانات في الصحف اليومية. كان يفصلني كل فينة وأخرى سيارة عسكرية محذية للرصيف، وكنت أتعثر وأرتبك في العادة حين يقابلني أحد المارّة، فأختلف معه في أن أسلك يميناً أو يساراً، حتى أربكه معي فيكاد يصطدم بي، كم كان الأمر مريعاً وأنا أقبل على سيارة دورية مفتوح بابها، وبجواره عسكري واقف، كانت المسافة بينه وبين الباب المفتوح أكثر من متر بقليل، وخلفه مباشرة حوض شجرة ظليلة، لا أعرف كيف جرؤت أن دخلت بينه وبين الباب المفتوح، فكان يحدّق في وجهي بشدّة، وما أن بلغته حتى أوقفني بغتة وسألني: وش عندك؟ قلت متلعثماً: ولا شيء! سأل: عندك معاملة؟ قلت: لا! فأشار بتأفف: تفضّل!.

اللعنة على نهارك يا أحمد، كيف قبضت عليّ وقتلت شجاعتي أمام محبوبتي، وكشفت لها أنني جبان، لا أملك مناصرة صديقي الشاعر السجين، يا أخي يا أحمد التفكيكي حلَّ عن سمائي، ودعني بعيداً عن أمور السياسة وفوضاها، هي لعبة قاتلة تشبه لعبة

www.10planet.net/vb

الروليت الروسية، لا تعرف متى وأين ستمضي الرصاصة الوحيدة في مخزن المسدس، وفي أي رأس ستستقر؟ أنا لا أريد شيئاً منها، أريد أن أكتب قصائدي وأسافر في العالم وأحب وأحيا، يا أخي لا أتصوَّر أن أبقى سنوات طويلة بين أربعة جدران تحجب الضوء والهواء، أي سنوات؟ بل لا أملك أن أبقى أياماً معدودة فقط! ألم تقل أنت يا أحمد أننا هنا عشنا ثلاثة أيام مذهلة تفوق متعتها ثلاثين عاماً عشتها في الدوحة؟ إذن أقفل فمك، ودعنا نعيش ونغني ونطير بخفَّة مجانين عاشقين للحياة.

www.10planet.net/vb

(٢٢)

على الكورنيش كانوا ثلاثتهم يسيرون ويغنُّون بمتعة: علّي صوتك.. علّي صوتك.. بالغناء.. لشا الأغاني ممكنة.. ممكنة! هبطوا الدرج تباعاً نحو المرسى، حيث المراكب في منتصف الليل تتأرجح بدعةٍ وليونة على صفحة النيل الناعمة، المصابيح لم تكفَّ عن الرقص على الماء، كانت المراكب معقودة بالحبال على المرسى:

- نصعد مع الناس، أو نأخذ مركباً لوحدنا؟.

سأل أحمد الجساسي وقد استدار نحوهما، حيث حرَّرت يدها بغتة، كان لا يفهم لِمَ؟ هل هو يحرِّضها على أن تفلت يده، أم أن ثمَّة علاقةً ما خفيَّة وملتبسة تجعلها تتخلَّص من يده، لتراعي مشاعر الآخر:

www.10planet.net/vb

- أحسن لوحدنا. قالت وهزَّ خالد رأسه موافقاً.

في النهر، حيث الليل والسهارى والأغاني الراقصة، سبقنا «فطوطة» المصري الأسمر النحيل نحو مركب الأحلام، وبدأ يحل عقدة الحبل المعقودة دون أن يبعد سيجارته من فمه، ثم جذب رأس المركب، وقفز أحمد أولاً، تبعته آمنة خائفة شيئاً ما، مما جعله يمدُّ يده ليمسك بها ويحفظ توازنها، ثم قفز خالد مستمتعاً بهواء النيل وهو يلفُّ شالاً صوفياً أسود حول رقبته، جاء رجل مصري أربعيني وسمين، وقبض ستين جنيهاً، ثم سأل: أي خدمة يا بيه؟.

- ثلاثة شاي كشري! قال أحمد.

- خليهم أربعة عشان فطوطة! عقَّب خالد.

سأل أحمد فطوطة، بهزَّ رأسه موافقاً ولم تزل سيجارته في فمه، وهو يلفّ الحبل في مروحة محرّك المركب، ثم وهو منحنٍ يجذبه بقوَّة ليستقيم جذعه، فيتأتئ المحرّك قليلاً حتى يخمد، ويعيد الكرَّة حتى ضجَّ محرّك المركب في ليل النيل، ورمى سيجارته في الماء ثم بدأت يداه تفتّشان في صندوق أشرطة الأغاني، وهتك صوت المغنية هيبة النيل وسكون الميل: حبيبي قرّب بصّ بصّ بصّ! ثم خلع الشريط ووضع الآخر: بط يا بط يا بط، وزّ يا وزّ يا وزّ.

رفرف البط والوز والمتع النادرة، تحوَّل رجلان وامرأة، إلى طفلين شقيين وطفلة مجنونة، بدأ المركب المسقوف أعلاه يتهادى في النهر بصخب الأطفال، كان خالد يفرقع بأصابع يديه معاً، وآمنة تشرع ذراعيها وهي تهزُّ صدرها الطفولي بمتعة، بينما يمدِّد أحمد ساقيه على الكرسي الطويل خلف فطوطة مباشرة، وينظر نحوهما مبتسماً

www.10planet.net/vb

بخفر حتى تنمو على جانبي فمه غمازتاه الجميلتان، كان جذع آمنة العلوي يهتزُّ بمتعة نادرة، كانوا يعلّقون بسخرية على كل شيء، حتى على أنفسهم، كانوا يزعقون تجاه بعضهم بسبب الصوت العالي للمسجل، خلع خالد شاله الأسود من على عنقه، وأشار به إلى آمنة وهما يغنيان: عشان أصالحك وأرضى عليك، حاجات كتير لازم تعملها، أوم أقف وإنت بتكلمني! كان يشير بيديه معاً وهو يرقص، يشير إليها بأن تقف وهو يمسك بالشال الأسود وقد أزمع أن يعقده حول مؤخرتها الممتلئة، كانت ترقص بفرح دون أن تقوم، كانت تشعر بالتردُّد قليلاً، إذ كان أحمد مسترخياً بثقل الآباء ويبتسم، زعق فيه خالد: أوم أقف! كان أحمد يقبّل ظهر أصابعه ويضعها على جبينه، كأنما يحمد الربَّ على العافية وسلامة العقل! كان بصرخ:

- كنت أسأل معقول هذا هو كاتب «سماء تحت لساني»؟.

ضحكت آمنة بشدة، وواصلت التهكم وهي تقرأ مطلع قصيدته، بنبرة صوته الحزينة، ضحك خالد وهو ما زال يحرّض أحمد على أن يقف ويرقص: يا اله ياعمدة! لكن أحمد تحجّج بأنه لا يعرف الرقص، واكتفى بالتصفيق بحماسة، والصراخ كل مرّة: أيوه يا عمّي! فجأة توقف المسجّل عن الغناء، فزعق أحمد: يا الله يا عمّي يا فطوطة! ردَّدا خلفه: يا الله يا عمّي يا فطوطة! أكمل خالد: مرّة «الدفنة» مرة «الفوطة»! صاحا بجنون وهما يردّدان معه، ويصفّقان بطريقة الصفقة الخليجية التي تشبه حوافر أحصنة راكضة، حتى أن الشاب الأسمر فطوطة كان يضحك بحياء ومواربة، وهو يحاول المسجّل الذي خمد فجأة، وبدأ يخبطه على وجهه.

www.10planet.net/vb

قرّرت آمنة أن تخطو نحو رأس المركب المدبب، وأن تفرد يديها كما لو كانت «ليوناردو دي كابريو» في فيلم تايتانيك، وافتعلت أنها تنوي السقوط في النيل، كأنها «كيت وينسلت» فقبض عليها خالد كمنقذ، وهو يسحبها نحوه بدفء، فضحكا وهما يشيران إلى أحمد كما لو كان البطل الأرستقراطي زوج بطلة الفيلم. كان أحمد يصرخ بضحك عالٍ: ستووووب! ويحكي بلهجة مصرية: بس بأه يا ابني! ما تروحشي بعيد!.

قال لهما: اسمعوا بأه لنكتة دي! زعق خالد: إيه يا عمده! قال وقد التفت نحو فطوطة: اسمع النكتة فطوطة! لو كانت قديمة ما تسمعشي! ثم ضحكو بشغب!.

الرئيس مبارك حلم أنه واضع يده على ظهر نانسي عجرم، فطلب من مفتي الدولة يفسّر الحلم، فسأله المفتي: يا ريّس أنت كنت حاطط يدك على ظهرها مباشرة بدون حائل؟

قال: آه بدون حائل! قال: يعني على الجلد مباشرة؟ قال له: نعم! قال: إيدك أبوسها يا ريّس!.

ضحكوا بصخب، وضحك المركب أيضاً!.

www.10planet.net/vb

(٢٣)

لم يكن سهلاً أن يتخيَّل نفسه راقصاً في مركبٍ على النيل أواخر الليل، وهو الصارم صرامة رولان بارت، والمفكك كما دريدا، لم يكن سهلاً أن يقف راقصاً وهو الذي وقف مراراً على منبر الجامع، خطيباً في صلاة الجمعة مطلع الثمانينيات الميلادية، وقت دراسته اللغة العربية في جامعة الرياض، التي صارت جامعة الملك سعود، إذ كان مبتعثاً للدراسة من بلده، وقد أقام في السكن الجامعي داخل المبنى الجديد مع طالب له شعيرات قليلة على عارضيه، وشماغه يزحف خلفاً مما يجعله يعيده عشوائياً إلى الأمام كل مرة، وهو يحادثه:

- خذ هذي الله يجزاك خير!.

كان الطالب المتديِّن يمنح أحمد الحساسي النشرات والأشرطة

www.10planet.net/vb

الإسلامية، ويغريه بأن يلتحق بفرقة الجوّالة، حيث المخيمات والرياضة والمتعة والخطب الدينية، أحبهم أحمد سريعاً وأحبوه لخفّة ظله وطرافته، وصرامته حين يتطلب الأمر ذلك، كان متفوّقاً في دروس الخطب الأسبوعية في الرحلات الخلوية، حتى غطّى ذات جمعة غياب زميل له ذهب إلى العمرة، فكان مقبولاً في خطبته المكتوبة، ولم يكد يخطب لأسابيع حتى صار يرتجل الخطبة بمهارة ومتعة ولهجة خليجية حميمة وفطرية تجعل المصلّي لا يغفل عنه ولو لثوان!.

كان سيصبح قيادياً إخوانياً، لولا أن وشى به زميله، بأنه يسمع المنكرات في غرفة السكن، حتى وبّخوه حول سماع الموسيقى، لكنه أصرّ على أنها لا تثير الغرائز ولا ما يحزنون، وأنه يحبّ الموسيقى، فما أن تعب معه زملاؤه في التنظيم حتى بدأوا يزيحونه شيئاً فشيئاً، الأمر الذي فعله بدوره وقد شارفت دراسته على النهاية، والعودة إلى الدوحة ليعمل معيداً في جامعتها ويشرع في البحث عن الرمز في القصة القصيرة في الخليج لدراسة الماجستير.

كان أحمد إخوانياً يحب فيروز، ثم شارك في أنشطة حزبية منظمة، وخطب في صلاة الجمعة، ودروس بعد صلاة المغرب، لكنه ضاق بعد أن أحب الموسيقى والحياة، وبدأ يقرأ بشغف نادر جدل باشلار حول الزمن، ونظرية دريدا، ونصوص بورخيس، وروايات كونديرا، حتى وجد أن الحياة هي في مكان آخر.

كيف يفهم هؤلاء ذلك، كان يقول، بأن صوت عبدالباسط عبدالصمد وهو يرتّل سورة الرحمن يجعله يطمئن ويتأمل بصمت ويشعر بالراحة، كذلك حين ينساب صوت فيروز وهي تبكي: ورقه

www.10planet.net/vb

الأصفر.. شهر أيلول.. تحت الشبابيك.. ذكّرني فيك! كان يشعر بالحنين، لكنه لا يعرف إلى من هذا الحنين! هكذا كانت فيروز والرحابنة يتحدّثون عن مشاعره، وهكذا كان ترتيل عبدالباسط عبدالصمد في الصمت يجلب طفولته من نربج الأصمخ، حيث النواخذة الذين هجروا البحر والغوص، وتمدّدوا في الطرقات يستمعون القرآن صباحاً باكراً، أو يردّدون أغاني الغوص والبحارة: هيلي يا مال .. هيلي يا مال!.

أخته التي تكبره كانت تمسك بيده ذاهبين إلى آخر الفريج كي يوصلا هدية العمرة التي أحضرها الأب: جالون ماء زمزم ومسبحة من خشب الصندل ذي الرائحة الزكية وأعواد الديرم وصورة مطويّة لصحن الكعبة والمصلين والمنائر العالية، ويعودان بحلوى «الرهش» الشعبية، إذ تشيّع الجدّة خطواتهم من النافذة الخشبية في البيت الطيني.

في البيت كانت العلبة السحرية الصغيرة الخضراء تأسره، تلك التي أحضرها الأب من مكة، التي تشبه تلفزيوناً بحجم علبة الكبريت، فيغمض عيناً ويفتح الأخرى، ثم يبدأ يهمز الضاغط أسفل العلبة، لتتحرك الصور المنوّعة للمشاعر المقدّسة: الحرم المكّي، الحرم النبوي، حاج محرم يقبّل الحجر الأسود، حاج يعلق أضحية العيد... إلخ.

www.10planet.net/vb

(٢٤)

الصمت أيضاً مرة أخرى، حيث لم نزل حتى الآن لا نملك أن نذكر اسم جمال أخي، فضلاً عن أن نسأل أو نتحدَّث عن موته الغامض، كان في الثالثة يصغرني بثلاث سنوات، إذ نجلس جميعاً إلى سفرة الطعام على الأرض، تضع أمي سفرة الخوص، ثم تنقل أخواتي الثلاث صحون الغداء، من مكبوس وإيدام، حلوى ولبن ماعز، كان جمال أخي جائعاً، فمدَّ يده اليسرى نحو صحن المكبوس، وما كادت أصابعه الطاهرة تلتقط حبَّات الأرزّ الهندي الساخن حتى انهالت على ظهره قبضة أبي الضخمة فانغمست يده الصغيرة بأكملها في الأرزّ الحارق، وانكفأ وجهه على الصحن قبل أن تلتقطه أمي، وتهزَّه إذ أغشي عليه، خارجة به إلى باحة الدار تخبط برفق على خدِّه: جمال.. جمال يا جنيني! حتى زعقت بأختي الكبرى لتحضر ماءً، مسحت به وجهه الأصفر المسلوب، فشهق بغتة وفتح عينيه وبكى طول اليوم، لما أبي بشاربه الكثّ

www.10planet.net/vb

الذي يغطي شفته العليا السوداء فقد مسح شاربه بظاهر كفه بعدما أتى على نصف الصحن وقام يتجشأ برعونة.

ظلّت أمي إلى آخر الليل تهدهد أخي ذا السنوات الثلاث، وقد ارتفعت حرارة جسده كثيراً، كانت تسقيه الشوربة الساخنة، لكنه كان يسعل فجأة ويتقيأ كل ما في جوفه، كنا جميعاً، أنا وأخواتي الثلاث نحيط بها وهي تؤرجح جسد جمال الملتهب وتغني له، وتبكي بدمع خفيٍّ وصامت، واستمر كذلك حتى اليوم الرابع، إذ كان أنبوب المغذّي ينساب من حامله إلى كفه اليسرى التي غامرت وهاجمت الأرزَّ بشغب وجوع، كانت اليد مغطّاة بلاصقين متعامدين يثبتان الإبرة المغروسة في ظهر كفّه الصغيرة، حتى جاء اليوم السادس وأغفى جمال أخي الأصغر بهدوء. بكت أمي طويلاً، وما زالت تبكي حتى الآن، وبكينا جميعاً، ولم نعرف لم قتل أبي شقيقي الأصغر، هل لأنه غامر بالأكل قبل أن يبدأ هو، وذلك جناية في حق أبوّته وسلطته، أم لأنه أكل باليد اليسرى وليس باليمنى، يد إبليس إذ قدَّر أخي الشيطان الذي لم يملك أن ينقذ أخي من شيطان البيت الضخم. آه يا بيت الشياطين! كنت أفرّ دائماً، ولا أملك حتى الآن، وأنا فوق الأربعين أن أسأل أبي الكهل عن موت شقيقي! ولا أحد من أخواتي أو أمي، لكننا جميعاً نملك العيون الصامتة ذاتها التي تدين أبي، وتقول له: أنت قاتل!.

لم تزل أمي تحتفظ بثوبه الأبيض الصغير الفضفاض، ولم أزل أراه أحياناً يمرُّ بأحلامي وهو يضحك ويدور ويصفّق بيديه فرحاً، وحتى حين قدمت السيارة لأول مرة في الدوحة، وعبرت شارع الكورنيش حتى ميناء الصيادين، ومنه إلى السوق فالجسرة والجامع الكبير وبرج الساعة، كنت أرى أخي في الشوارع أحياناً، وفي السوق، بل أحياناً

www.10planet.net/vb

أشعر به يكاد أن يعالج الباب الجانبي كي يركب!.

كلما سرت بسيارتي الصغيرة البيضاء في شارع البدع وشارع الريّان، كنت أسمع حفيف أنفاس بجواري، فأنظر فجأة صوب مقعد الراكب المجاور، لأضبطه يتأمل الشارع أمامه، وأحياناً يفاجئني شقيقي جمال وهو يصفّق بيديه ويغني: هيلا يارمانة! ويهزّ رأسه على الجانبين بحبور، يقول لي إنه لم يمت، صحيح أن قبضة أبي ثقيلة جداً جعلت أمعائي تضطرب وقصبتي الهوائية تنخلع من مكانها، إلا أنني قاومت الموت بقوّة، وها أنت ذا تراني بجوارك أغني وأرقص: وهيلا يا رمانة.. الحلوة زعلانة!.

حتى حين أقف بسيارتي عند المدرسة الابتدائية في حي الريّان، لآخذ طفلي البكر محمداً، كنت أرى شقيقي جمال بغتة بين التلاميذ، ثم يختفي في الزحام، حتى أنني أحياناً أسحب فرملة اليد بشدّة، وأطفئ المحرّك بعجلة، صافقاً الباب خلفي، راكضاً نحو تجمهر التلاميذ، لأفتّش بينهم عن شقيقي، لكنني لا أجده، فأتلفّت في الأنحاء، حتى أراه يعلّق حقيبته على ظهره، ويقف مبتسماً عند سيارتي، فأنكص راكضاً، لأرى محمداً ابني يفتح الباب المجاور ويركب: تأخرت يا بابا! أناديك كثيراً وما تسمع!.

www.10planet.net/vb

(٢٥)

نحن الذين رأينا كل شيء، أنا وأمي وأخواتي الثلاث، رأينا الحقيقة، لكننا صامتون عن الكلام، رغم ذلك ثمّة هالات مضيئة تحيط بنا أينما ذهبنا وحللنا، تلك الهالات من الشعاع تكشف ما في أعماقنا، تفضح دواخلنا القصيّة، هكذا يرى أبي أحزمة من الشعاع تكشف ما في أعماقنا: أنت قاتل! لكن أبي يحترق بصمتنا المهيب النوراني!.

هكذا كانت طفولتي منسيّة، كنت أخرج في الدروب الترابية، نلعب «التيلة» نقتل الهموم الصغيرة والصمت الطويل باللعب، نملك الدرب وقت العصاري ونملأ السماء بالصراخ، وما إن تتقطّع أنفاسنا حتى نبحث عن باب منزل أحدنا، ونجلس قربه نردّد معاً الأهازيج بغبطة وبصوت عالٍ: أبوه حمار، ما عنده دار، أول واحد، ينطق كلمة! واحد، اثنين، ثلاثة.. بس! يعمّ الصمت بين الصغار،

www.10planet.net/vb

فأضحك بصخب نادر، ويصرخون بأصابع تشير نحوي: مسكين أبوه حمار! مسكين ما عنده دار! مسكين أبوه حمار! ثم يعيدون اللعب ويطلبون مني أن أتماسك عن الضحك، لكنني أصرخ بعبث: !!!!!!!. هكذا يخرجونني من اللعب، وأعود إلى البيت، وأنا أتخيّل أبي وقد صار حماراً أبيض، كنت أول من يفتح فمه بالكلام، كي أمزق صمتهم، لعلّ أبي يصبح حماراً أليفاً، ندخله آخر النهار في حوش البيت الخلفي، ونضع له البرسيم فيأكل وينام، لا يصرخ ولا يضرب بقوّة! كنت أفكر ذات مغرب وأنا أمشي صوب المنزل، فقابلني فجأة حمار ينظر نحوي بريبة، يحدّق بي بشدّة وقد توقف أمامي وسدَّ الدرب، تراجعت قليلاً، لكنه مشى نحوي بصلابة والشرّر يقدح من عينيه، أول مرّة أرى حماراً عدوانياً هكذا، لا أعرف كيف التقطت طرف ثوبي وأطلقت ساقيّ تجاه رفاقي، كانوا يضحكون ويستلقون على ظهورهم بجنون: تخاف من حمار؟.

لم أقل لهم إنني أخاف من أبي! لا أعرف كيف رأيت عيني أبي غاضبتين، وليست مجرد عيني حمار أليف ومذعن، هل صار أبي حماراً؟ كنت أسأل، قبل أن أدخل المنزل على أطراف أصابعي، ويربكني صوت أبي الثقيل: أحمد! وين كنت؟ أردت أن أقول: كنت معك! لكنني قلت له إنني رأيت حماراً جنّياً، ينظر تجاهي ويضحك! ولم أقل لأبي إنه كان يقول لي: أنا أبوك يا حمار!.

كان أحمد يضحك بشدّة وهو يقصُّ على خالد وآمنة حكاية الحمار الذي يشبه أباه، صرخ خالد بجنون ونشوة، دون أن يكفَّ جسده عن الرقص وهم يمشون على كورنيش النيل: نأخذ حمار! !!! أقصد بغل! !!!! أقصد حنطور! ابتسم لهم الحوذي بجلابيته وعمامته، وهو يشعر أنهم عبّوا من الشراب حتى أصبحت أقدامهم

www.10planet.net/vb

وأرواحهم خفيفة. قفز أحمد بطوله الفارع، وجذب آمنة بجواره، إذ ينظران معاً تجاه الطريق أمامهما، بينما قابلهما خالد، مانحاً الطريق ظهره، جالساً أمام آمنة تماماً، واضعاً إحدى ركبتيه بين رجليها، كان يشعر بمتعة إذ تثرثر ركبتاه مع ركبتها، وعيناه مشرنقتان بعينيها الواسعتين: سألوني الناس عنك يا حبيبي.. كتبوا المكاتيب وأخذها الهوا! كانت أصواتهم تضجُّ طرباً وفرحاً على إيقاع خطوات البغل الرتيبة، جاءت كل الأغنيات القديمة لفيروز وعبدالحليم وأم كلثوم وفريد وكثير من الحناجر، كلما حطَّ الصمت ثانية أو ثانيتين فوق سقف العربة المزركش، انداح صوت أحدهم متذكِّراً أغنية من ذاكرة الطفولة البعيدة.

كأنما الصمت آنذاك يعني الوحشة، كأنه لم يعد هو ثمرة الأعمال العظيمة، أو هي ثمرته، كأننا لم نتدرَّب في طفولاتنا على الصمت المحكم، كأننا لم نتعلم أن نصمت في حضرة آبائنا، ونصمت في حضرة معلمينا، ونصمت في حضرة الطعام، وفي الحمّام، وقبل النوم وبعد النوم، الصمت جعل منَّا آلهة الحكمة، وكأنما الكلام سيسلبنا الكثير من الضوء. هكذا كنَّا نثرثر بخبل، ولا هالات ضوء تحيط بنا حين نمشي على النيل، لا حاجة إلى هذه الحزم النورانية التي يقرأها غيرنا من الصامتين حتى يعرف الكنوز الخفيَّة في أعماقنا القصوى، لا حاجة لها لأننا لا نصمت، بل نثرثر حتى تهرب الحزم النورانية عنَّا مثل سرب حمام أبيض يفرُّ عالياً.

www.10planet.net/vb

(٣٦)

هناك فرق، أحياناً يكون الصمت القسري يخفي الأعماق، فلا يظهر بجوار الكائن سوى دوائر سوداء مظلمة، لكن الصمت برغبة ودراية هو ما يجلب الهالات النورانية العظيمة التي تجعل من يقابلنا يضطر إلى الالتفات والنظر بعجب ودهشة، وهو يردّد: يا للضوء، يا للقداسة!.

كان خالد اللحياني مساء الثلاثاء الأسود يحيط نفسه بغلالة شفّافة من الضوء المقدّس، حيث لاحظت آمنة أولاً دوائر من الإشعاعات تحيط بخطواته، وقت أن كانت أقدامه الثقيلة تهرس ورق السنط اليبس، ثم انتبه أحمد إلى هذه الهالات، بل إنه أحس بغلالة تحيط آمنة أيضاً، فدخل في خندق الصمت، وهم بمشون كجنود ليليين، وكلما مرّوا بشباب ربفيين يرتدون زي الأمن المركزي طالعوا فيهم بوجل، ثم تجاهلوهم غير مكترثين وهم ينظرون إلى أقدامهم

www.10planet.net/vb

بصمت، ليدخل هؤلاء الجند في نوبة نوم منقطّعة داخل كبائنهم الخشبية أمام المقرّات الرسمية، كذلك كانت كلابهم الضخمة تبسط أذرعتها وتغفو أمامهم بامتنان.

القاهرة في «الدقّي» تخلد إلى صمت مهيب، وخطواتهم الرتيبة يحيط بها صمت ناتل، ضحك فجأة أحمد وهو يشير إلى سوبرماركت الحكمة: خالد.. موز؟ وتضحك آمنة.

بالأمس، كانوا يعبرون الشارع ذاته، لكنهم يشعلون الشمس ليلاً بالضحكات، حتى لمح خالد عناقيد الموز الأفريقي تتدلّى من علاقات صغيرة بجوار الميزان، فانعطف سائلاً عمّا إذا كانا يريدان الموز، فضحكا، وعلّق أحمد بخبث: الله يستر.. شهوة آخر الليل موز؟ خرج خالد من السوبرماركت، وقطف خالد إصبع موز طويلاً، وناوله أحمد الذي أخذه وكاد أن يناوله بدوره آمنه لكنه تردَّد وهو يقول ضاحكاً: تصدّق؟ استحيت أمدّه لآمنه! لكن خالد مدَّ الموز الأفريقي الطويل ممسكاً بطرفه بخبث، نظرت آمنة نحوه وهي تبتسم، وراحت تنزع قشره برقّة ونعومة، قبل أن تلقمه فمها.

لم يكن مساء الثلاثاء الأسود يحتمل الضحكات، حاول أحمد بذكاء مكشوف أن ينصحهما بأن يستمتعا معه باليومين الأخيرين، ليس علينا أن نفكّر أننا سنفترق قريباً، بل علينا أن نعيش الحياة حتى أقصاها، نعيشها في لحظتها الراهنة، دون أن نفتقد أي متعة الآن!

يا سماء الدلافين! هل كان أحمد يعتقد أننا نشعر بالحزن لأننا سنفترق بعد يومين فحسب، ألا يعرف أنه أمسك بجلد الدلفين الرخو! ألا يتعارك صيادو الأسماك واللؤلؤ حين يدخل أحدهم في

www.10planet.net/vb

منطقة الآخر الخاصة، الحميمة، هكذا كانت الحكاية، رجل يعبد امرأة، ويلهج باسمها، ويكفيه منها أن يجلسها فوق صخرة على الشاطئ، يتأملها ويتمتم بصمت، فكيف وقد اكتشف دلفينها القرنفلي الناعم وهو يصارع دلفينه بولَهٍ وشوق ومتعة في ماء الحياة، كان خالد يسأل نفسه: هل عرف أن معها دلفيناً قرنفلياً يخاتل ويتملَّص وينام ويضاجع؟ هل اكتشف ذلك؟ أم أن اليد بالنسبة له مجرَّد يد امرأة سمراء وناعمة؟.

لماذا افتعل خالد كل هذه القضية؟ ما الفرق بين أن أركب في المقعد الخلفي بجوارها أو يجلس هو؟ ألسنا نعرف أننا مجرَّد أصدقاء؟ حتى لو قالت آمنة بضحكات لعوبة، أنها تحبنا معاً؟ وتريدنا معاً؟ نحن نعرف أن كل ذلك مزاح ولهو ولعب سينتهي حالما يسند كل منَّا رأسه إلى مسند مقعد الطائرة، لذا لا شيء يستحق أن نفقد حبنا وتقديرنا لبعضنا، كم أحببت خالداً، وصوته الشعري في «سماء تحت لساني»، وفي تجاربه كلها، وكم تعلَّقت بحبه حين عرفته إنساناً ساخراً من كل شيء، حتى من نفسه! لماذا يطير كل شيء فجأة، لماذا تجلب المرأة لنا الفرح، تماماً كما تجلب الحزن والفنوط؟.

لم أظنّ، حتى لو ظنَّاً، أن تصيب خالد حالة خرس كهذه، كنت أشعر بغيظ حين رأيته مع المرأة المحجبة، وكنت أرغب الخروج لأشم الهواء فحسب، لكنني أحببت أن أعيد انتباهه إليّ، فتعرَّفت على يد أحمد الضخمة، كانت يداً كبيرة وحنوناً، أحسست بدفئها وهي تأكل يدي الصغيرة السمراء، هل قلت يدي؟ نعم لم تعد دلفيناً مع أحمد، هكذا تفقد الأشياء نكهتها مع الآخرين! هكذا عادت يدي بلا اسم، لا بد أن يجتهد أحمد حتى يصنع لها اسماً جديداً ومجداً آخر، لكن المسألة ترتبط بالمشاعر والأحاسيس، كان خالد

www.10planet.net/vb

شاعراً مرهفاً، سماها دلفيناً، وجعل يده محيطاً أزرق، وأقنعني أن حياة دلفيني هي فقط في محيطه.

منتديات الكوكب العاشر

www.10planet.net/vb

(٢٧)

- تعرف فتلة؟

• أعرف فطوطة!

- بجد والله؟

ثم ينقطع الحوار في زحام شارع محمد علي، هكذا هي يوميات القاهرة، متقطّعة ومتّصلة بخيط لا مرئي، كما لو كانت رواية لميلان كونديرا، متناثرة الأنحاء كالشظايا، لكن رؤيتها عن بعد تكشف خيوطها الخفيّة. باعة الخبز على الرصيف، الفتيان يبيعون الخضار والبرتقال المصري على مباسط خشبية، عربات النقل، الحناطير الراكضة، الأتوبيسات المجنونة المتهالكة، صانعو أعواد العزف الخشبية، تلاميذ المدارس يمشون في ملكوت من الصمت واللامبالاة، العجائز الشحّاذات، العجوز التي تقف وسط الطريق

www.10planet.net/vb

كعمود وتردّد طوال الليل والنهار: يااارب! المومسات اللاتي يعبرن خلسة كدمى مبهرجات بالماكياج الثقيل، العجوز الصعيدي الذي يخرج من جيب صدره علبة أقراص بيضاء ليرمي قرصين منها في فمه الخالي من الأسنان تقريباً، جثّة الرجل المطروح بجلابيته على جانب الرصيف نائماً.

كانوا ثلاثتهم يعبرون وهم يثرثرون، كل منهم يجذب الآخر من مرفقه حذر الفوضى في الشارع، خالد لا يكفّ عن جذب آمنة عن صخب الشارع والعربات المتدافعة وسط أبراق لا تنتهي، أحمد يدفع خالداً قليلاً عن الشارع نحو الرصيف المزدحم، يسألون عن هارمونيكا صغيرة، كل بائع يرشدهم إلى محل آخر، وهم يخرجون ويدخلون كما إبرة الخياطة تدخل وتخرج من النسيج، وآمنة كل مرّة تجرّب الهارمونيكا بأن تضعها بين شفتيها لرقيقتين وتنفخ الهواء، ثم تمسحها بكمّها وتعيدها إلى البائع وهي تهزُّ رأسها نفياً، حتى أتوا على جميع المحلات في شارع محمد علي دون جدوى.

في محل الأسطوانات والأفلام بجوار الأرض الصغيرة الملأى بالنفاية دخلت وحدها، كانا يتحدثان منهمكين، فالتفت خالد بغتة، وعادا إلى المحل المزينة واجهته بالبوسترات الخاصة بالأفلام الجديدة، كانت تسأل عن أفلام تعليم رقص الباليه، وضحكوا حين اقترح البائع أشرطة تعليم الرقص الشرقي:

• أنا عندي بحث عن الرقص الشرقي. قال أحمد ضاحكاً.

- ما تحتاج للتطبيق في البحث؟ سألت آمنة ضاحكة بخبث.

www.10planet.net/vb

• طبعاً ضروري، الكتابة عن الرقص على الطبيعة أفضل!.

كان خالد يتجاهل حديثهما، ويقلب أشرطة أدعية صوفية بين يديه، ويسأل عن سعر المجموعة، في حين قلبه كان يحاول أن يتملّص من قفصه كي يطير، يا لهذه المرأة! يقول لنفسه، كيف تملك كل هذه الروح، وكل هذا المرح والخفّة، وكل هذه العذوبة، وكل هذا العشق من كل من يراها أو يتحدّث معها، كيف لي أن أعيش، دون أن أفقد توازني، دون أن أفقد عقلي، دون أن أرمي نفسي ليلاً، أو على وجه الفجر، في قاع النيل!.

كنت أحب الباليه كثيراً، تفكّر آمنة، حاولت أن ألتحق بدورات تعلّم الرقص الخفيف الطائر، لكن أمي رفضت بشدّة، وهي تقول إن هذا الرقص ليس من سلمنا وعاداتنا، جسدي كان خفيفاً ومتناسقاً، وأشعر أن هذه الرقصة تجعلني قريبة من السماء، تجعلني كطائر يقف على قدم واحدة، أحسُّ أن رقصتي مع راقص باليه ستجعلني مثل أفعى تراود ذكرها، أراني وهو يسندني بذراعه بينما جذعي يتدلّى من الخلف، ثم يلتقطني كالريشة ويرفعني فوق كتفه، وأدور كفراشة حول زهرتها قبل أن يلقفني على الأرض.

www.10planet.net/vb

(٢٨)

المساء الأخير سيكون في السفينة الفرعونية، هكذا قرَّر أحمد الجساسي وهو يبتسم بغمازتيه الجذَّابتين، وافقا فوراً، إذ شرح لهما أن ثمَّة برنامجاً للرقص والغناء وجولة سحرية في النيل:

• هل هناك أيضاً دلافين؟ سأل خالد وانفرطت ضحكة آمنة بتواطؤ.

كان خالد يسأل بخبث، وهو يريد أن يشعل حرباً صغيرة مع صديقه أحمد، كأنما يريد إغاظته مقابل استدراجه معشوقته لحظة الكلام عن الرقص الشرقي، هل أحمد من استدرجها؟ يسأل خالد نفسه وهم ينزلون الدرج إلى مكاتب تأجير السفينة، بل هي التي اقترحت أن تقدِّم له خدمة تطبيق الرقص الشرقي على الطبيعة، كي يكتب بحثاً تجريبياً حيوياً! يا للبحث!.

www.10planet.net/vb

وقفا بعيداً عن شبّاك التذاكر بينما أحمد يحجز ثلاثة مقاعد، ينظر خالد نحو عينيها الساحرتين بخدر، كان مأخوذاً بفتنتها، لا يعرف حقيقة مشاعره ورغباته، لا يعرف حقاً إن كان يكفيه الحلم بأن ينام دلفينها القرنفلي في بحيرة كفّه، أم أنه يحلم بأن يرسل بسمكته الساخنة الوحيدة تجاه بحرها السخي، هل كان فعلاً يفكر فيها كجسد مثلاً، هل هو بعد كل هذا الركض عبر الصحارى والقفار والبحار والمحيطات محاصر برغبة عناق دلفين، ومجرّد أن تلتحم أصابع كفّين، يشعر بالمتعة والطمأنينة واليقين: إن الحياة تبدأ وتنتهي هنا! ولكن هل تنتهي هنا؟.

تذكّر صديق دراسته الجامعية الذي عاد إلى ضمد بجازان، كيف أحبّ امرأة تايلاندية وجهها مستدير كالقمر، تقف خلف كاونتر استقبال في فندق في باتايا، سافر إليها ست مرّات، كان يسكن أسبوعاً كاملاً في الفندق ذاته، يقضي معظم الوقت متأملاً وجهها الملائكي أثناء ورديتها، وحين تنتهي يغادر الفندق متجوّلاً في الجوار. كان يشبه الإمبراطور الفرنسي شارلمان الذي هام بحب فتاة ألمانية، كان صعلوكاً جازانياً هام بمومس تايلاندية، كلّ مرّة يخطو قليلاً نحو عينيها، المرة الأولى لم تكترث به، وفي الثانية ابتسمت له، وفي الثالثة تكلمت معه ورمى لها نقوداً كثيرة، وهو يشعر بانتصار أنها سألته: هاو آر يو؟ فأجاب بإشارة من إبهامه المفرود وبفمه المفتوح كضفدع: قوووود.

المرة الرابعة جلست معه في مقهى قريب بعد أن خلعت الزي الرسمي للفندق، ولبست تي شيرت بلا أكمام بفتحة صدر كبيرة، فاض منها منبت خوختين محمرّتين، حتى لم يعد يستطيع أن ينقل عينيه الجاحظتين عنهما، وفي المرة الخامسة أمسك بيديها في الطريق

www.10planet.net/vb

إلى الملهى، ثم قبّلته بعمق بعد أن نفحها كل ماله، أما المرة السادسة والأخيرة، فقد لوّح لها بخمس ورقات من فئة المائة دولار كي تبيت معه في غرفته، وما أن عانقها وخلع ملابسه حتى أخرجت من حقيبتها إصبعين، أشعلت واحداً وغرسته في فمه، ودخّنت الآخر، فضجّت الغرفة بدخان أزرق جعل العالم في عينيه بطيئاً للغاية، كان يمزّ إصبع الحشيش ويرى يده ترتفع ببطء شديد نحو وجهها، حتى تكاد تتوقف نصف الطريق، كان الزمن طويلاً جداً، ولم يعرف في اليوم التالي إن كان نزل عارياً في البهو، وهو يبحث عن حوض السباحة على وجه لفجر، حتى أخذه رجلا أمن، وأعاداه إلى غرفته، لم يكن متأكداً تماماً مما حدث، لكنه كره المكان، خصوصاً بعد أن صارت ذات الوجه القمري تتجاهله في الأيام الثلاثة التالية من رحلته السادسة والأخيرة.

في لحظات نادرة يرصد خالد جسدها أمامه، هل يتخيّلها عارية وهو يتأمل جسدها الذي يشبه الجوافة، الوسط الرهيف، الحوض الواسع المتناسق، تلك المؤخرة المستديرة التي توشك أن تشهق تحت سطوة بنطلون الجينز الضيّق، ينظر أحياناً تجاه صدرها الصغير، وما إن تضبطه حتى يذهب ببصره مرتبكاً نحو النيل أو يلتقط كأس الشاي مفتعلاً حديثاً لا يكاد يتقن نهايته، أو يعاند بذكاء ويشير إلى أن قلادتها الفراشة جميلة، فتحني رأسها كثيراً نحو صدرها وتلتقط الفراشة بأصابعها، وتنظر إليها قليلاً قبل أن تطيّرها.

www.10planet.net/vb

(٢٩)

صعدوا ثلاثتهم إلى مقاعد المطعم المطلّ على السفينة الفرعونية، حول طاولة مستديرة جلست آمنة أقرب إلى أحمد، كانت يدها لا تكفُّ عن ملامسة يده مع كلِّ ضحكة أو نكتة، حاول خالد أن يجعل الحوار جدّياً، كي يوقف دلفينه اللعوب عن العبث، تحدَّثا عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وفكرة أن أحدهما يجد نصفه الآخر يوماً ما، لكن أحمد أصرَّ على أن حكاية النصفين اللذين يتطابقان هي أكذوبة، إذ شبَّههما بالمفتاح والقفل، بحيث نظن دائماً أن أسنان المفتاح متطابقة مع القفل، لكنها في الواقع تختلف غالباً في سن صغير لا يلحظها أحد، الأمر الذي يجعل كثيراً من الزيجات تفشل بعد عدد من السنوات. كانت آمنة ترفض ذلك، وقالت بتحدٍّ مباغت لهما:

- أنا مثلاً أشعر أنني متطابقة مع خالد تماماً!.

www.10planet.net/vb

طار قلب خالد خافقاً، وشعر أن النيل الخالد أصبح في كفّه، وعبَّ الهواء الرطب بمتعة نادرة، في حين اعتبر أحمد طرحها هذا مجرّد مثال لا غير، وأكد أن ثمّة سنّاً لا مرئية قد تجعل الحياة صعبة فيما بعد، هكذا تفانى أحمد طوال الساعة التي سبقت رحلة النيل مع القراعنة ليثبت أننا نقنع أنفسنا بأننا عثرنا على نصفنا الآخر.

هل هجر أبي زوجته الأولى وتعلّق قلبه بفتاة جاءت من بهلا، فأصبح يلهج باسمها: فاطمة! حتى اكتشف أن ثمّة سنّاً صغيرة من أسنان مفتاحه لم تتطابق مع قفل أمي فاطمة، فاختفى ذات ليل بعد تجربتين فاشلتين، ذاهباً بعيداً تجاه الشرق الأقصى، وكأنما شعر أن قفل المرأة ضيّقة العينين يتناسب مع مفتاحه، وذهب ليقيس ضلاله داخل فتنتها! كانت أمنة تفكر ساهمة وهي تمزّق وريقة الليمون الصفراء بين أصابعها الرفيعة الفاتنة.

وهل هناك سنٌّ لم أكتشفها في مفتاح خالد لا يجعله يفتح قفلي جيداً وبسهولة، تذكرت ليلة الثلاثاء الأسود حين كانا يبكيان برعونة مراهقين في غرفتيهما وهما يتحدثان في الهاتف، هل غيرته المربكة تلك تعني حبّه العظيم؟ وهل انتقامها منه لأنها رأته يتحدث مع المرأة المحجّبة في ركن القاعة يعني حبّها الكبير له، وهل مجرّد لمسة يد يمكن أن تجعله يطيش، ومجرد حديث جانبي مع امرأة في مكان مفتوح يجعلها تطيش بدورها أيضاً؟ أي تعقيد هذا في العلاقة، وأيُّ فوضى في المشاعر؟.

برد كوب الشاي بالنعناع بين يديها، وهي تضمُّ الكأس بشوق، وعيناها ساهمتان نحو خالد، وصوتها يخاصر صوت أحمد ويحلقان في ليل النيل: أنا حبيبي بسمته تشبه الضي.. يكسف سنا

www.10planet.net/vb

بدر الدجى من جبينه.. أنا حبيبي! فجأة ينقر خالد برؤوس أصابعه على الطاولة مكملاً بصوته العذب الطروب: راعي العيون الناعسة رمشها في.. لا سلهمت ذاب الهواء من حنينه.. أنا حبيبي!.

في الطاولة المجاورة حدَّق بهم طفل مصري في العاشرة، مع أمه وأخته المحجبتين، لم يكن يعاني قسوة نظراته واستهجانه سوى خالد، بينما آمنة وأحمد يهبانه ظهريهما، مما اضطر خالد أن يدير رأسه تجاه النيل ويخفت صوت غنائه قليلاً، حتى يغيب في حلك النيل: له نظرة لا هي سراب ولا مي.. وتتحوَّل كلماته الخفيضة إلى ماء رقراق تضطرب فوقه الأنوار. كم ينكسر سريعاً أمام أيّ شيء، ويشعر بالخجل حتى أمام طفل، كيف لو نام فجأة ورقص فوق الطاولة، خصوصاً والمرأة ذات العينين الساحرتين تعترف أن قفلها يلتهم مفتاحه بسهولة.

نظر نحوها مبتسماً برقَّة، وهو يرفع حاجبيه مرفرفاً: أجل مثل نصفين متطابقين، كشفتِ المستور يا بنتي! قالها بما يشبه المزاح، لكن أحمد فاجأه بحدَّة لم يستوعبها: يا عمّي أنت غرقان لشوشتك! حاول أن ينفي ويراوغ، حتى أكد له أحمد أن من حقه أن يقول ما يشاء وينفي ما يريد، لكن لأمور أصبحت واضحة، ثم عاد يدبّر مكيدة جديدة في مقتل، ويتحدَّث عن حكاية المفتاح والقفل، بأن اختلاف أسنان المفتاح أحياناً لأن الحبّ يأتي من طرف واحد! لكن هذا الطرف لا يفهم، وأحياناً لا يريد أن يفهم! شعر خالد أنه يتحدث عنه بطريقة مجازية، كأنما يقول إنه مفتاح غبي، لا يستوعب أن أسنانه صحراوية لا تسلك في قفل بحري! أو كونه كائناً ترابياً لا يلائم امرأة مائية!.

www.10planet.net/vb

(٣٠)

أمام مدخل السفينة الفرعونية تجمهر الركّاب، رجل فرنسي طويل تعانقه فتاة بيضاء جميلة، يهصرها نحوه ويده تتخلل شعرها الأشقر، بينما تلقي برأسها على صدره، كان خالد ينظر ويعلّق بخفوت، الأمر الذي جعل آمنة تلتفت حول مرمى بصره، فترى المشهد ثم تعود ببصرها نحو صديقيها.

انتظم صفُّ الركاب، تقدّمهم أحمد بيده ورقة الحجز، وخلفه آمنة، بينما خالد يلتصق بها من الخلف، يشمُّ رائحة شعرها المتحرّر والمنساب كنهر عشوائي، بربطة كريستال أعلاه، حتى بدت كتلميذات الثانوية العامة، كانت تغزو أنفه رائحة الياسمين، كأنما كان لحظة ذاك في حديقة تضوع من أنحائها روائح الفلّ والياسمين، كان يضع يده فوق كتفها كلما تحرّكت أماماً، فتميل برأسها جانباً على كتفها صوب يده حتى تدعك بأذنها الصغيرة شعيرات ظهر كفّه،

www.10planet.net/vb

كانت مثل حمامة أليفة تفتّش بمنقارها ريش ذكرها الوحيد.

صعدوا من الدرج الخشبي الضيّق إلى الطابق الثاني، توقفوا قليلاً لعدم وجود حجز على طاولة، مضى أحمد هابطاً الدرج، رجلان يحملان مقعداً متحرّكاً لامرأة مسنّة تمسح دمعها بظاهر كفها، وخلفهما امرأة أربعينية، كم هي الحياة جميلة فقط حين نقدّر أعضاءنا، همست آمنة وأضافت، هذه القدم لتي نمشي بها لا ننتبه إلى قيمتها إلا حين نرى قدماً معطوبة! قرّب خالد فمه من أذنها هامساً: حتى اليد ونحن نستخدمها في تنظيف مؤخراتنا لا نتوقع أنها كانت في الأصل دلفيناً رائعاً فقد حياته حين فقد المحيط العميق بمياهه الداكنة! ضحكت آمنة بطريقة هيستيرية وهي تقفل فمها وتنظر في الوجوه التي استدارت نحوها.

أقبل أحمد مبتسماً، وأشار إلى أن عليهم الهبوط إلى الطابق الأسفل من السفينة، كانت طاولتهم ليست على الحافة حيث ماء النيل، وليست في الوسط تماماً، يفصلها عن الحافة طاولة حيث جلس شاب وفتاة، كان هناك أربعة مقاعد، اتخذت آمنة مقعداً بجوار الحائط المنتشرة عليه رسوم فرعونية، واتخذ أحمد مقعداً مقابلاً لها، بينما جلس خالد بجوارها، ألمحت إلى أنها لا ترى النيل من الجهة المقابلة لبعدها، وتضطر إلى أن تلتفت خلفاً، فيصطادها الشاب بنظراته المختلسة، كانت تفكر أن تنتقل إلى المقعد المقابل بجوار أحمد، لكنها تخشى عقوبة إضراب خالد بصمت أبدي، كما فعل وقت أن جاورها أحمد في التاكسي، كانت وعدته ليلة الثلاثاء الأسود أن تحفظ دلفينيها القرنفليين بعيداً عن بحار ومحيطات الفضوليين، كفّت آمنة بعينيها السوداوين الساحرتين عن الحلم بالنيل، ونسيت لحظة أن انطلقت الفرقة الموسيقية بالأغنيات.

www.10planet.net/vb

كانت المغنّية ترتدي نستاناً لؤلؤياً مشدوداً حول جسدها، وبظهر عار وأبيض، جميلة كانت ولها ابتسامة جذّابة، غنّت بمتعة وأرفصت معها الدلافين الفرنفليه اللعوبة، التي تحب الرقص والمرح، الدلافين التي تزور النيل، الدلافين التي تنقاد بغبطة إلى النهر بعد أن ملّت حياة المحيطات والبحار! هكذا حرّكت آمنة يديها وهي تهزُّ الجزء العلوي من جسدها، تغني مع صوت المغنّية العالي وتراقص خالداً الذي بدا مستمتعاً ويرقّص دلافينه أيضاً في الهواء.

أما أحمد فقد كان مستمتعاً وهو ينظر نحوهما، قبل أن يقف بجوارهم النادل ليسأل عمّا يشربون، طلبوا كأس عصير مانجو، وكأسي جوافة، كانت رائحة الجوافة تقود خالداً إلى طفولة منسيّة في تيوك، حيث شجرة الجوافة التي تنمو في باحة الدار، ويهزُّ جذعها مع ابنة الجيران سلمى حتى تساقط ثمرة جوافة ناضجة. كان خالد يقاسم آمنة كل شيء، إصبع ورق العنب الملفوف، شريحة الطماطم، حتى كأس البيرة الذي وافقت عليه ثم تراجعت. في ذروة رقصها وهي جالسة أشارت المغنّية نحوها كي ترقص أمامها، لكنها رفضت بهزّ رأسها على الجانبين، قال أحمد إنها تلتقط بحدسها النساء العاشقات للرقص، إذ لم يكن على ظهر السفينة المسقوف سوى آمنة وشابة مصرية مع عائلتين تشتركان معاً في طاولة كبيرة، يضطرب جسداهما مع الإيقاعات السريعة.

انتبهت المغنّية إلى جدوى الأغنيات الراقصة، فغنّت لأحمد عدوية وبهاء سلطان وبعض الأغاني الخليجية: عشان أصالحك وارضى عليك، حاجات كثير لازم تعملها، ثم بدأت المغنّية تشير بيدها نحو آمنة: أوم أقف وانت بتكلمني! وفجأة تركت مكان الفرقة الموسيقية، وأمسكت بيد آمنة التي تمنعت قليلاً، قبل أن يحرّضها خالد، الذي

www.10planet.net/vb

رفض طلب المغنّية بعدما حاولته أيضاً متذرعاً بأنه لا يعرف الرقص. رقصت آمنة تلك الليلة حتى فاضت دلافين من النيل، لا أحد يعرف من أين أتت كل هذه الدلافين على حواف السفينة ورقصت مع آمنة، كانت تطير وتلوّح وتمرح، وكأنما كان النيل يخفي في جوفه العميق مئات الدلافين التي تنتظر لحظة متعة لا تأتي، كانت آمنة تهزُّ جسدها الرائع، صدرها الصغير بشرتين لم يكتمل نضجهما بعد، خصرها الرهيف للغاية، ومؤخرتها المستديرة المتماسكة التي تضطرب مع إيقاعات الطبلة العالية، تنسف شعرها بطريقة أهل الخليج، وتضع سبابتها على أنفها، ثم يتماوج جسدها من الأعلى حتى الأسفل، لتجلس ثم تحتُّ جسدها على النهوض التدريجي كأفعى: أيوه.. يا عظمة! كان أحمد تخلّص من حياء يحاصره، وصفّق مع خالد كثيراً، وشجعا حبيبتهما طوال رقصتها الأولى.

كانت آمنة كما لو كانت امرأة سومرية وهي تنشر شعرها الليلي الكثيف على الجانبين، كأنها تحرّك بشعرها الهائل الهواء والغبار فوق السفينة كي يرتبك هواء سامراء كله، ويجلب غيمات مكتنزة بمطر لا يتوقف، شعرك الأسود الوافر يا آمنة السومرية كاد أن يوقف قلبي! كان خالد يفكّر قبل أن يعود من سامراء قبل الميلاد.

أشار أحمد للمصوّر الذي التقط لهم معاً بعض الصور قبل دقائق، وطلب منه أن يصوّر آمنة في رقصتها الأنثوية الرائعة، وما أن اقترب المصوّر نحوها، وقبيل بوح الفلاش كادت أن تتوقف عن الرقص، إذ لم ترغب بالصورة دون أن تنتبه إلى أن كثيراً من العائلات تحمل كاميرات فيديو خفيفة وصغيرة الحجم، ومصوبة نحوها في ذروة الرقص الخفيف.

www.10planet.net/vb

يدها كانت عالية، وعيناها تنظران نحو العدسة، عيناها تحملان المتعة والرغبة في قول شيء، بينما بدا ذرع المغنّية في طرف الصورة، كانت خائفة وهي تتأمل صورتها، فاقترح أحمد أن يدفع للمصوّر مبلغاً مغرياً مقابل الحصول على شريط النيجاتيف، وبعد أن وضعه في جيب بذلته الرسمية، أرعبها خالد بأن أكثر من كاميرا فيديو كانت تتابع رقصتها، وأن مقطعاً صغيراً من الرقصة سيتوفر في مواقع إنترنت خليجية بعد أيام معدودة، وأن أمها فاطمة ستصدم بابنتها بعد أن يصل المقطع إلى هاتفها المحمول: لا.. خالد حبيبي لا تخوّفني جذي! ضحك خالد بخبث وهو يقول بلهجة خليجية: ولا يهمك أطرّش لك المسج أول ما توصل لحد موبايلي! ضحك أحمد بلؤم وهو يقول: هم طرّشها لي، عندي واحد فنان تركيب صور، يركب رقصتها مع رجل أفريقي أسود! ضحكا بشدة، وضحكت هي بخوف.

رقصت الفتاة المصرية الصغيرة، ثم تلتها فتاة أخرى يظهر أنها تزوجت قريباً، إذ ناولت كاميرا الفيديو زوجها الشاب، الذي بدأ يلاحقها في رقصتها القصيرة، ثم حضر مغنٍّ شاب، يلبس بذلة بيضاء وربطة عنق حمراء، محاولاً أن يغني ويرقص معاً، لكن الساهرين حول الطاولات منشغلون بالثرثرة، قبل أن يعمّ الصمت والدهشة مع تغيير المغنّي إلى الشاب ذي الملامح الريفية، الراقص بمظلة ملوّنة ضخمة حول جسمه الرشيق، يدور ببراعة مع خبطات طبول ذات إيقاع صوفي حزين، كان يدور ويدور، مرة تبقى المظلة ذات الألوان حول خصره، ومرة حول وجهه، وثالثة فوق رأسه إذ تدور كمروحة، بل إنه يضعها فوق يده رغم ضخامتها ويدور بها على الطاولات حوله، ليلقى تصفيقاً حارّاً.

www.10planet.net/vb

(٣١)

أطباق وأوانٍ مستطيلة بأكل ساخن، أرزّ أحمر دخانه يعلو، وخيوط معكرونة مزدانة باللحم المفروم، أنواع من الخضروات المحشوّة باللحم والدجاج، أكواز ذرة ساخنة وأنواع من السلطة، كانا يدوران بطبقيهما حول المواقد، ينتظر طلباتها فيأخذ الملقط ويضع لها ما تشاء، ليس كمثله رجل في السفينة الفرعونية، يلازم أنثاه ويلتصق بها، ويعنى بها وبخدمتها، حتى أنه لشدّة تعلقه بها، وتولهه بعينيها الدعجاوين نسي حرارة الآنية عندما حاول أن يدفع عنها الغطاء فمسّ الحريق أصابعه، حتى شهق وأدخل أصابعه في فمه، وعاد ينفخ صوبها الهواء، فبادرت هي بدورها آخذةً يده لتنفخ تجاهها وتقبّلها: أووه يا دلفيني العاشق!

روى لها عن أحد السلف، إذ كان يحضر حلقته شابٌّ يخبئ يده دوماً في جيبه، ولا أحد يعرف سرّها، حتى كان يوم جمعة، وهما

www.10planet.net/vb

لوحدهما سأله المعلم عن يده، حتى يدعو له إن كانت مريضة، فأخرجها فإذا هي عارية من الشعر ومشوّهة ومصابة بما يشبه الشلل، فسأله عن حكايتها، فروى الشاب أنه أولع بجارية طاغية الجمال والعذوبة، حتى صار يلهج بذكرها ليل نهار، سرّاً وجهاراً، وأنفق عليها الكثير مما ورث عن أبيه من مال بلغ ثلاثين ألف دينار، فأشار عليه آخرون بأن يمتلك هذه الجارية، فابتاعها بستة آلاف دينار، لكنها قالت له لماذا فعلت ذلك وأنت تعرف أنك أبغض من على الأرض إليّ، ولا أطيق النظر نحوك، فحاول أن يبذل ماله كله لها، لكنها ازدادت عناداً وكرهاً له، فقرّر ردّها إلى مالكها، فأشارت عليه داية عنده أن موتها عنده أهون من موته هو بسبب فقدها، فأبقاها، حتى كان يوم قرّرت الجارية أن تعتزل وتضرب عن الطعام، حتى ضعف حالها وأوشكت أن تموت، دون أن تذعن لتوسلاته وبذله، وفي اليوم الرابع وقد أخذ منها الإنهاك والذبول طلبت منه دقيقاً مطبوخاً باللبن، فكاد أن يهلك فرحاً، وقرّر أن لا يصنعه لها أحد سواه، فأوقد ناراً ووضع عليها قدراً، وبقي يخفق العجين الذي يغلي، ذائباً ومنصتاً إلى شكواها وآلامها خلال الأيام السالفة، حتى أقبلت دايته مرعوبة وطلبت منه أن ينتزع يده من القدر، فإذا هي عارية ومحروقة.

ضحكت آمنة وهي تقول بتوسل: خذني إليك يا مولاي! ابتسم خالد وقال بلهجة صارمة: ويحك يا أمة الله، سآخذك الليلة إلى جنة سريري! ضحكا وهما يطالعان أحمد جلساً إلى الطاولة يتأمل أنحاء السفينة وهي تنساب كأفعى الرمال، على سطح النيل الساحر.

على الطاولة وبعد أن رتّبت آمنة منديلها على صدرها، سأل خالد ثانية بخبث: النيل فيه دلافين؟ وما أن كاد أحمد يتفوّه بكلمة

www.10planet.net/vb

متفلسفاً، حتى ضجّت آمنة بضحكة عالية، ولم تتمكن من التوقف، حتى دمعت عيناها بشدّة، خالد يحاول أن يهدئها ويصبّ الماء في كأسها، في حين كان أحمد مأخوذاً بالموقف، محفوفاً بالدهشة، لا يعرف إن كانت تضحك من السؤال ذاته، أو ما إذا كان ثمّة موقف تذكرته آمنة، وقد استدعته ذاكرتها الآن، أو إن كان للدلافين دلالة سرّية بينهما، لها شفرة خاصة عندهما لا يعرفها هو، خاصة أن خالداً يسأل عن الدلافين للمرة الثانية، كان أحمد يراجع ما يمكن أن يحمله شكل الدلفين من دلالة، تبادر إلى ذهنة سريعاً عضو الرجل، فكّر أن هذا الضحك المجنون الطويل وراءه سرٌّ عجيب.

بعد أن هدأت آمنة قليلاً، اعتذر خالد مبتسماً بخبث وبراءة، عمّا إذا كان سبّب لها مشكلة، فهزّت رأسها نفياً، كانا ينظران نحوها معاً مبتسمين، منتظرين أن تكشف لهما السرّ، قالت إنها ضحكت لطريقة السؤال الطفولية، كأنما خالد كان طفلاً يمسك بيد أبيه وهما يسيران معاً على الكورنيش، وقد تذكّر الصغير درس العلوم عن المحيطات والبحار والأنهار، والكائنات وفصائلها، فسأل أباه ببراءة وعذوبة: النيل فيه دلافين؟ كان ناقص يقول: يا بابا!.

كانت حكاية ملفّقة وذكية، رغم أنها لم تكن مقنعة تماماً، لكن الرجلين واصلا التعليق على حكاية الولد وأبيه الملتحي، حتى انتهت السهرة وهما يتداولان الكلمات ذاتها: بابا ..آكل بطاطا؟ عيب يا حبيبي تمدّ يدك قبل الضيوف! ممكن بابا أطلب أغنية؟ يا شاطر لا توسخ ملابسك!.

www.10planet.net/vb

(٣٢)

في اللوحة الجدارية في قاعة السفينة الفرعونية كانوا ينظرون بشموخ، أحدهم يقف، وآخر يجلس على العرش، وثالث برأس جدي، ورابع كعقرب أو كصقر، هكذا كانوا ينتشرون قرب طاولتنا، هكذا كان آمون وأخناتون ورمسيس وحوريس يقفون في المشهد دون أن يهبطوا نحونا على المقاعد، لا أعرف كيف أحسست فجأة أن رمسيس الثاني هبط ببساطته وإنهاكه نحوي، وقال لي: يا ولدي يا خالد، أنت مثلي، أنا خرجت من تابوتي الملكي المزدان بأمتعتي الذهبية والفضية وبورق البردى المخطوط عليه تعاويذ وصلوات من أجل خلودي وبعثي، أنا خرجت من تابوتي مسروقاً تائهاً ليس عليّ سوى قماش كتّان أبيض، وأنت خرجت من منزلك تائهاً أيضاً مسروق القلب ليس عليك سوى ثوب أبيض، أنا خرجت من مدافن طيبة والدير البحري حتى طرتُ إلى باريس بحثاً عن الخلود، وأنت خرجت من بلدة حقل وتهوك إلى دبي

www.10planet.net/vb

والقاهرة ولندن بحثاً عن الفناء، أنت خالد اسماً وتبحث عن الفناء، يا للمفارقة يا ولدي!

آه يا خالد لو كنت معي لحظة المعركة، لو صحبتني إلى قادش وبقيت معي في المعسكر قبيل المعركة، ورأيت كيف أمنت وجلست على عرشي حين خدعني رجلان حيثيان قدما نفسيهما كهاربين من جيش الحيثيين، وأكدا أن جيش العدو على بعد مائة وعشرين ميلاً، قبل أن يعتقل رجالي جاسوسين حيثيين اعترفا أن الجيش على بعد ميلين فقط، يا للخديعة يا خالد يا ولدي! تخيَّل! قبيل أن أهيئ جيشي كانت عرباتهم وخيولهم السريعة قد ظهرت كغيم متدافع من وراء الربوة القريبة، كانت سهامهم تمزق الهواء الثقيل، كانت غيمة جيشهم تهطل سهاماً مسنونة نحو جيشي، وكانت خديعتي الثانية أن فرَّ جيشي مذعوراً، فما كان منِّي، وأنا واهب الوظائف والعطايا، وموجد الذهب في صحراء النوبة، وصاحب اليد التي تجعل التراب ذهباً، إلا أن وقفت بجبروتي وعنادي وصرخت: أين أنت يا حامل درعي! لو كنت معي يا خالد! لو كنت حامل درعي في قادش، لشهدت قدرتي وعظمتي، ليس كما تراني الآن مرسوماً على الألواح يتسلى بالنظر إليَّ سائح مثلك!

كان رمسيس الثاني يقف أمامي بابتسامته الساحرة العذبة، ويتأملني ويمسح على رأسي، وتذرف عيناه اللازورديتان دموعاً من فضَّة، يقول إنه يدعو ليلاً ونهاراً أباه آمون، بعد أن أصبح وحيداً وأعزل، وقد تآمر جيشي ضدِّي وكذلك الأمم والممالك، وتكاثر عليَّ الأعداء من كل حدب وصوب، وكذلك أنت يا خالد لقد تآمر عليك الأصدقاء، وأنت وحيد وعاشق وأعزل، هكذا أحسست أنني إله الحرب واكتسحت أعدائي، وستشعر أنت أنك إله الحب

www.10planet.net/vb

وستقتحم قلب محبوبتك وجسدها، ستعرف أنك لا شيء، وأنت متذبذب ومتردّد ووجل حيال امرأة واحدة، بينما ضاجعت أنا أكثر من خمس زوجات، وخمسين من المحظيات الجميلات، بل قل خمسمائة محظية، وأنجبت من الذكور والإناث ما لا أتذكّر أسماءهم، بينما أنت قلق من أن تكون مسؤولاً عن طفل واحد!.

كأنما خالد قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام بملامحه ذاتها يجلس بخجل وضعف أمام الملك رمسيس الثاني، يحني رأسه وينصت له، صحيح أن الملك كان نحيلاً ومنهكاً ومريضاً وقد عاد من رحلة علاج وترميم في باريس، لكنه يحمل المهابة في ابتسامته العميقة المتأملة، وهو يسأل: ما الذي جاء بك هنا؟ كان السؤال واضحاً ومقامراً، لينهمر خالد كالسيل، أنا جئت متعباً وعاشقاً، المرأة التي أحببت يحيط بها مائة رجل يعشقونها جميعاً، وتعشقهم جميعاً، يسهرون على خدمتها، كما سهر على علاجك مائة عالم في باريس! تخيّل أيها الملك! أنت تهيئ باريس لجسدك المسجّى استقبالاً رسمياً، وأنا بجسدي الذي يضجّ بالحياة والشهوة تتجاهلني لندن، فلست أكثر من شحّاذ يتوسل ابتسامة امرأة، ويتخطّف لحظة خلاء نادرة معها كي يعلّق على عنقها الغضّ قلادة دلفين فضّي صغير! صحيح أنك ملك عظيم، وأنا شاعر صعلوك، وصحيح أن الشعراء يتسولون على موائد الملوك، لكنني يا سيدي ومليكي رمسيس الثاني لست كذلك، أحاول أن أتعفّف، فساعدني يا واهب العطايا، لا أريد شيئاً سوى حبيبتي الجالسة بجواري، أعطني حبيبتي وكفَّ بصرها عن غيري كي لا ترى أحداً سواي!

آه رمسيس، كان خالد اللحياني، الشاعر وخرّيج الآثار، يتأمل اللوحة الجدارية أمامه بخدر، قبل أن تنساب من تحت الطاولة يد

www.10planet.net/vb

خضراء كالدلفين القرنفلي وتعتلي يده، تعتليها وتدخل أصابعها في فراغات أصابعه حتى يقفز ثلاثة آلاف سنة أماماً، ويتأمل آمنة بوجهها الملاتكي، وعينيها الدعجاوين، وشفتيها الممتلئتين، وشعرها المنساب كالنيل، المعقود أعلاه بمشبك كريستالي لامع، وكأنما هو المنبع المائي الفضّي، كانت تهزُّ رأسها أمامه: وين كنت؟ يبتسم بنعومة كائن حيّ وبجفني مومياء نصف مفتوحين: كنت هنا! تسأل بوجل: هنا وين؟ تزداد ابتسامته: هنا مع الفراعنة! قصدي معك في السفينة الفرعونية.

www.10planet.net/vb

(٣٣)

الأيدي ذات اللغة، الأيدي ذات التاريخ والمواقف والأسرار والكمائن، الأيدي التي تعطي وتبذل، والتي تأخذ في الخفاء، الأيدي الحاكمة التي تدسُّ ذريرة بيضاء سامَّة من الفضّة في أظفار الخدم حتى يفتُّوا الرمان للضحايا، والأيدي التي تدسُّ السمَّ حيث أخناتون يترنَّح، ويد ابن ميمون التي ألَّفت كتاباً عن السموم، ويد القاضي الفاضل التي تناولت الكتاب كهدية بالتي ترجمته، الأيدي التي تخنق وتكمِّم الأفواه، والتي حملت خنجراً فطعنت في الكبد والشرَّة حتى خرَّ الجنرال الفرنسي كليبر، ويد الحلبي ذاتها التي طعنت وقد أُحرقت أثناء التحقيق قبيل أن ينفق فوق الخازوق، الأيدي التي حملت البندقية وصوَّبت، والتي حملت الكاميرا وصوَّبت أيضاً، الأيدي التي حملت قلماً وكتبت قصيدة، والأخرى التي حملت قلماً أيضاً وصادقت على وثيقة إعدام، الأيدي التي حرَّرت بالمشرط زائدة دودية لمريض، والتي حزَّت عنق ضحية ببغداد،

www.10planet.net/vb

الأيدي التي اخترعت قنبلة ذرّية هي ذاتها التي تشرب كأس حليب ساخن صباحاً وتطالع السهوب الخضراء من النافذة المفتوحة في خريف بعيد، الأيدي التي وقّعت اتفاقية مع عدو قبل أن تذبل وتصفرّ وقت أن أشهرت أيد أخرى بندقية صوب منصة حفل عسكري، الأيدي الكهلة المتخشّبة التي تُنقِذُ الزوجات الشبقات في فروجهن، والأيدي الغضّة التي تستمني، الأيدي التي تغسل الأطفال اللاهين في المغاطس والأيدي التي تغسل الأموال، أيدي البستاني التي تقصُّ الأغصان وتهذّبها، وأيدي السيّاف التي تقصُّ الرؤوس وتدحرجها، الأيدي الممدودة إلى أعلى تنتظر هبات الصليب الأحمر، والممدودة إلى أسفل تحفر قبراً، الأيدي التي تمسك يد صغير لتعبر به شارعاً مزدحماً صوب صفّه في مدرسة الروضة، والتي تمسك يده الوردية بحذر لتقذف به في قمامة منسيّة.

الأيدي التي تصافح وتخنق وتحضن وتصفع وتصفح وتبوح وتفصح وتقبض وتكيد وتحيد وتنام وتطير وتتنفّس وتكتب وتقطف وتلقف وتحذف وتأنف وتلوّح وتكفّن وتحفر وتحثو وتهيل وتعطي وتمنع وتكفُّ وتغلُّ وتفكّ وتجلد وتسجن وتعفو وتحمل وتحلم وتلكم وتهرش وتصفّق. الأيدي التي تصفّق للنادل وللراقصة وللمغنّي وللإمبراطور ولأسماء الملوك والأمراء وللخادم ولحامل السيف وللسيف وللطير أيضاً.

الأيدي ذاتها التي ترسل ذبذباتها وتشهر قرونها كدواب صغيرة فوق مرتبة مخملية لسيارة كابريس، قبل أن تتعانق في زحام سيّاح عرب وأجانب عند باب المتحف البحري، الأيدي التي ضاجعت بعضها عارية، واقترفت الإشارات ذاتها، العرض والقبول والإيجاب، حين ينداح إبهامه المبروم والمشهر في استدارة يدها المغلقة، أو لحظة

www.10planet.net/vb

أن ينوس إبهامها الناعم ويمتد عِرقاً أخضر بارزاً على ظهر كفّه، ياللعِرق النابض بالحياة: كان صمتها يقول.

اليد الشرسة الغليظة التي انهالت كصخرة على ظهر الطفل ذي الثالثة، فانكفأ على سفرة الطعام، ونفق بعد أسبوع من المرض الغامض، اليد الراعشة إذ تمسك ورقة القصيدة على المنصة بعد أن طارت عينان دعجاوان سلبتا عقله وروحه. اليد التي صارت دلفيناً ومضت في نزهة حول العالم، لتمشي في زحام الأرصفة دون أن تتلاقح ذبذباتها الخاصة مع يد أخرى تتأرجح أثناء المشي.

منتديات الكوكب العاشر

www.10planet.net/vb

(٣٤)

هل هو الفقد؟ أن نفقد الكائنات أو الأشياء فنبقى نبحث عنها إلى الأبد؟ أو نبحث عن أشباهها؟ أنشى الطائر التي نفقت في شقته الصغيرة في حقل، والطائر الأرمل الذي غادر نحو سيناء عابراً خليج العقبة، والأم التي مضت مثل حلم، وسلمى جارته التي تزوجت صغيرة وغادرت وراء المحيط الأطلنطي، كل هذا الفقد جعله ذات صباح بارد في الرياض، وهو خارج بسيارته الصغيرة الهوندا من حي الملز، ذاهباً إلى الجامعة في الدرعية، يتأمل لوهلة قرب إشارة مرور، محدِّقاً برعونة صوب امرأة تجلس في المقعد الخلفي وراء سائقها البنغالي، فلا يرى من سواد عباءتها وغطاء الوجه والرأس الأسود سوى كفِّها البيضاء وهي تمدُّها على رأس مسند المرتبة الخلفي، وتحرِّك أصابعها وكفَّها بإشارات موحية، كان ينظر مذهولاً ويتلفت، يحاول أن يدفع سيارته أماماً قليلاً، كي يتأكد أنها تعنيه هو، لكن الناقلة الصغيرة للألبان جثمت أمام سيارته كقدر، مرَّة تدُّق بأصابعها

www.10planet.net/vb

كما لو كانت طربةً مع أغنية لا يسمعها، مما جعله يدير مؤشر الإذاعة على محطة إذاعة الرياض، فكان المذيع يتابع أخبار الصحف اليومية، فجأة لمح مجموع أصابعها وكأنما تشير نحوه أن اتبعني، تمنى أن يعرف اتجاه وجهها، إن كانت تنظر نحوه أم نحو الأمام، فالغطاء الأسود لم يسعفه معرفة وجهة وجهها المحجوب، انطلقت سيارتها تتبختر بصلف، وتابعها، قطعت شارع الأحساء حتى وصلت كوبري الخليج وانعطفت يساراً، مشى معها حتى وصل إلى العليا، في شارع العليا العام رأى يدها البيضاء تنام بخدر على رأس المرتبة الخلفية الطويلة، لم تكن تتحرك وتشاغب كما الدلافين، اليد الناعمة البيضاء البضَّة ذكَّرته بيد بيضاء صغيرة وناعمة، حيث سلمى تهزُّ جذع شجرة الجوافة في منزلهم في تبوك، والثمر الناضج يخبط رأسيهما، هي سلمى ذاتها التي كبرت، وكبرت معها يدها الناعمة البيضاء الطرية، كبرت يدها وتحجَّبت بقفاز أسود ضافٍ حتى لا تجلب الشهوة وتزني بنظرات الذكور، تلك اليد المحجَّبة ذاتها اعتمرت قفاز مطاط أصفر سميك لتعمل فوق مجلى الصحون في مطبخ ما، تلك اليد المحجَّبة ذاتها، اليد التي أحببتها وضغطت عليها بين يديَّ الخشنتين مراراً، تحلم بقفاز شفَّاف واقٍ لطبيبة مستحيلة، تقف تحت ضوء كاشف وتشرط جسداً مخدَّراً، تلك اليد المحجَّبة ذاتها قد تضمر شرّاً ذات ليل فتدخل كأفعى في قفاز خشن وساتر، يشبه قفَّاز بستاني، لتسحب سكين المطبخ الضخمة من أحد الأدراج!

ذاك الصباح الفائت هل هو شرارة الحلم بدلفين يغسل القلب؟ هل كان الفقد هو ما جعله يركض ذاك الصباح البعيد خلف إيماءات يد لا يعرف إن كانت مقصودة أم عفوية؟ هل كانت السيدة آنذاك تمرِّن أصابعها صباحاً بعد أن مرَّنت جسدها في المنزل، كان خالد

www.10planet.net/vb

يفكّر، بعد أن هبطت السيدة في أحد المراكز الطبية، ونزل السائق البنغالي يمسح السيارة النظيفة أصلاً، واكتشف خالد أن الساعة تجاوزت الثامنة وفاتت عليه المحاضرة الأولى التي تخص مادة (أثر ٢٠٩) المتعلقة بالكتابات الإسلامية، فأوقف سيارته في مواقف كلية الآداب، ثم صعد الدرج مرهقاً وكئيباً، وأمام صخب الطلاب داخل المبنى هبط الدرجات القليلة واتخذ ركناً قصيّاً من الكافيتريا، وطلب قهوة سوداء، ثم بدأ يلتقط كلمات تجوس في ذاكرته، وتداعت راكضة على الورق، كمسوَّدة قصيدة جديدة.

www.10planet.net/vb

(٣٥)

على مقعد خشبي بارد جلسوا أمام النيل، كان الصمت يعمُّ المكان، وثمَّة إحساس غائر بالفقد، كما شجر السنط فوقهم، تتساقط الأوراق تباعاً، وتنساق مذعنة أمام الريح، هكذا هم يتساقطون واحداً واحداً، في الصباح الباكر يغادر أحمد الجساسي إلى الإسكندرية يومين، قبل أن يتابع إلى الدوحة، ثم كورقة سنط جافة تطير بعده آمنة المشيري إلى الشارقة، وأخيراً بعد غد يكون خالد اللحياني في السماء ذاهباً إلى الرياض فتبوك، ومنها إلى بلدة حقل الساحلية.

حاول خالد أن يقنع آمنة أن تؤجل موعد رحلتها يومين، ويلغي هو رحلته إلى الإسكندرية ليبقى معها في القاهرة: ما أدري.. صعبة والله! كانت عيناها الساحرتان وجلتين وهما تنظران صوب خالد الذي ينظر ساهماً تهاد النيل: بصراحة أتمنى! لكن! تقول آمنة وهي

www.10planet.net/vb

تحدّق في جانب وجه خالد بوسامته وهروب عينيه إلى الماء. كانت خطواتها قد تآمرت مع خطواته وقت أن صعدوا إلى الرصيف خارجين من السفينة الفرعونية، وسبقهم أحمد أماماً، وتوسلت إليه أن يبقى، كي تبقى يومين آخرين، تعلل بعمله البغيض كمدرّس ابتدائي، وصعوبة التغيّب عن المدرسة بدون ظرف قاهر: ولا ظرف قاهرة؟ قالت وضحكت وهي ترمي رأسها على صدره: والله صعب! قال قبل أن يضيف: أنت حرّة طبعاً، إذا عندك رغبة تأجيل سفرك!

تعرف هي أنه يقول ذلك وقلبه ينفطر غيرة عليها، وأنه يود لو يضعها في حقيبته ويغلق عليها، أو حتى في جيب قميصه: على الأقل نتفرّغ لبعضنا ساعات غداً. قال لها وفهمت. عليها إذن أن تعتذر عن تأخير سفرها، حتى يغادر أحمد صباحاً، وتبقى هي معه حتى المساء قبيل سفرها. كانت آمنة تعيش مشاعر متضاربة، تحبُّ خالداً وصوته ووسامته وعشقه ودلافينه، كما تحبُّ شُمرة أحمد ووداعته ومنطقه وظرفه، فلا تعرف كيف تختار؟ ساعات النهار الأخير مع خالد، أم يومين رائعين مع أحمد؟ خالد الذي يمتلئ عشقاً ويفرد لها حضنه ويغري دلافينها ببحيرته الدافئة، أم أحمد الذي يتحدَّث بجرأة وبساطة عن الجنس، ويسألها عن حياتها الشخصية بصفاقة أحياناً، لكنه مع كل هذا المنطق والعقلانية التي يتمتع بهما قد يعود فجأة إلى نقطة الصفر، إذ يتراءى له وجه زوجته وطفليه.

كانت تفكّر لحظات الخلوة بخطيبها في الشارقة، يا لهذا القدر مع الشعراء، هو أيضاً شاعر وشهم، يحبّني كثيراً ويصغرني بسنوات خمس، صحيح أنه يكتب قصائده بالعامية، لكن إحساسه عال

www.10planet.net/vb

ومجنون، تنساب الكلمات بين يديه بفتنة، لم أكن أحب هذا النمط من الشعر، لكنني معه صرت أتذوقه كثيراً، بل إن جمهوره يفوق غيره من الشعراء العرب الكبار، خاصة من الفتيات اللاتي يتناقلن قصائده كرسائل في الهاتف المحمول، كنت أخشى عليه من ولعهن فيه، لكنه يقنعني بأن عليَّ أن أحترم حياته الخاصة، كما سيحترم هو حياتي الخاصة وأسفاري وعملي الصحافي.

تشعر آمنة المشيري كما لو كانت في دبي تدخل بغتةً في نفق «الشندغة» الطويل المعتم قليلاً، وكأنما استطال كثيراً حتى لم ينتهِ أبداً، ولم يعد يفضي إلى ضوء النهار، فلا تعرف كيف تفكر وتختار بين هؤلاء، حبٌّ جامح ومحفوف بالغيرة، وحبٌّ ينساق نحو الصداقة التي قد تفضي إلى الحبّ العقلاني، وحبٌّ متفلّت إلى حد بعيد، كانت تضحك كلما تذكّرت ذاك المساء النيلي المعتم، في ركن مطعم داخل عوامة، حيث الطاولة دائرية، وعليها مفرش ضافٍ حتى الأرض، كانت تعطي ظهرها للنيل، على يسارها يجلس أحمد، وعلى مقربة منها يميناً يجلس خالد، حيث خلعت هي وخالد حذاءيهما تحت الطاولة، وبدأت معركة سرّية وشبقة تدور في الأسفل، بين قدميهما إذ تتعانقان فينة، ثم يعتلي أحدهما الآخر، وأخيراً يتخلل إبهامه الأيسر المفرود الفتحة بين إبهامها والوسطى، كل هذا العراك طوال الجلسة لم يكتشفه أحمد، إلا عند نهوضهما إذ فقدت آمنة فردة حذائها، مما جعلها ترفع مفرش الطاولة المتدلّي ضاحكة وهي تبحث عنها مع خالد الذي حنى رأسه إلى الأسفل.

كانا يسخران منها وهما يضعان كيساً بلاستيكياً معهما على المقعد الرابع الفارغ، ويتحدّثان معه كما لو كان خطيبها جالساً، بحيث

www.10planet.net/vb

إذا أراد أحدهما أن يتحدَّث نحوها فإنه يوجه الحديث نحوه كوسيط: إسأل المدام وش تشرب؟ ثم يضحكان بشغب، حتى أن الجرسون حين أقبل ضاحكاً سائلاً عما يشربون، قال خالد: أربعة لموناده! فضحكت آمنة بشدَّة حتى خبطت رأسها على حافة الطاولة.

www.10planet.net/vb

(٣٦)

في الصباح الأخير، كانا وحدهما تماماً، لقد رحل أحمد الجساسي مصطحباً معه دريدا وبارت، لكنه كان يحب كتاب «إنسان مفرط في إنسانيته» لنيتشه، أخذ معه أحلامه وحبّه لآمنة وخالد ومضى لم يودعهما، ثمّة أشياء غامضة وسرّية، لا يعرف خالد عنها إذا لم يودعهما معاً فعلاً، أم أنه تسلل في الليلة الأخيرة لغرفتها في الطابق الرابع وبذل في توديعها روحه، بل كان سخيّاً معها وهما يذرفان دمعاً باذخاً ولزجاً كل الليل. لم يعرف أحمد عما إذا كان سفره قبلهما بيوم سيمنح صاحبه الأمان النفسي ويجعله قادراً على سحب نفس عميق على كورنيش النيل، وترك الفرصة الأخيرة لهما في الفندق. بل حتى آمنة لم تكن جازمة منهما، عما إذا كانا يرغبان في جسدها، إذ يظهر أن أحمد يحمل على ظهره أحمال المحرم والخيانة وتعقيدات نفسية داخلية، في حين يبدو خالد كما لو كان يريد أن يقول لها إنني أعشقك بجنون، أريد أن أتأمل حلك عينيك

www.10planet.net/vb

وأدخل عتمتهما، أقصى أحلامي أن يضاجع دلفيني اللاهي دلفينك القرنفلي اللعوب، مع أنني اكتشفت سرّ شقيك الممتلئتين، ولا بد أن خلف إسفنجهما بحراً وسمكة تلبط تعد بمتعة لا حدَّ لها. هل يمضي أبعد؟ هذا هو السؤال الذي أحاط بهما وأشغلهما وهما يتفقان أن يجلب لها في غرفتها كيس الدبّ القطني، وقد استلمه من صديقتها المصرية سامية، وأخذه إلى غرفته، كي يكون ذريعة جديدة له، للذهاب إلى غرفتها النهرية.

لباب الغرفة عين سحرية يرى الساكن فيها دائرة ضخمة من الممر، كانت وراء الباب في الداخل تجس نظرته القلقه في الممر، وما إن فتحت حتى رمى الكيس من يده ودخل معها في غيبوبة من عناق، السماء لم تكن آنذاك هابطة، بل كانت روحهما تحلقان في سقف الغرفة، كانتا تصطدمان بالسقف وهما تريان من علوهما الجسدين في عناق طويل، وسمكتين ورديتين تلاعبان بعضهما في ماء دافئ، اليدان ذاتهما وقد نسيتا كونهما دلفينين راحتا تهصران خصرها الرهيف، ثم تحملانها بخفّة متناهية، كانت خفيفة وطائرة بجسدها الملائكي، كأنما كانت بجناحين رفرافين تطير في غرفة الفندق، وما إن حطّت على الشاطئ كنورس، حتى انحنى بدوره لتظن في البدء أنه طائر يسعى لأن يلتقط الحبَّ، لكنه باغتها وهو يلتقط القبلات على ظهر قدميها الصغيرتين العاريتين.

كنت أحلم أن أبوس قدميك! قال لها، وانحنت بدورها عليه حتى غاب رأسه كاملاً في شلال شعرها الأسود المظلم، فهبط الليل، ورأى ما لم يره أحد! كان كنسرٍ يمشّط الغابات، ويتفحّصها شبراً شبراً، قبّل مفرق رأسها، وجبينها، وما إن مسّت شفتاه عينها اليمنى حتى هربت بوجهها بغتة: لا! كانت مرتبكة وهي تقول له إن:

www.10planet.net/vb

بوسة العين تفرّق حبيبين!

هل كان يتخيّل ما سيحدث في النهار الأخير؟ أم كان يخطط ويدبر اللقاء الأخير كما يأمل؟ كان يسأل نفسه ويحلم، يرى نفسه نائماً على سريرها الملكي، متراخياً تحت اللحاف ومغمضاً، بينما هي تجوس ردهات الفندق وتنهي مواعيدها مع الآخرين، تعود إليه وتطرق الباب بخفّة فيفتح نصف نائم، ويهمس: نسيت أقول لك خذي كرت الباب معك! كنت أتمنى أن تدخلي وأنا نائم! أردت أن أسمع صوت معالجتك للباب لحظة دخولك، وأنت تدلفين إلى الحمام فأسمع صوت انسكاب الماء في حوض المغسلة، وعراك الفرشاة مع أسنانك الصغيرة كاللؤلؤ، ووقوفك أمام المرآة وتحريرك لشعرك المعقوص، كنت أنتظرك تندسين بملابسك الخفيفة تحت اللحاف، وتوقظينني بأن تدقّي باب فمي، فأفتح وأنا نصف نائم، حتى يدخل ضيفي الرخوي الوردي في الدهليز، ويعانق ويتحسس ويتذوق ويذوب ويتداح وينساب ويلهو ويخلو ويعدُّ حراس فمك البيض الواقفين كرجال صليبين من اللؤلؤ مسلحين بالشوق، كأنما هم حراس الشرف وهو الملك يتفقدهم واحداً واحداً على سجاد أحمر في فمك.

كان خالد يرى ويحلم: النهر يسيل على ضفاف الرابية ويدها الدلفين القرنفلي يقفز بخفّة وريبة حتى يمس حوته المحبوس، فيتململ داخل الأزرق الكحلي، ويفتح عينه الوحيدة ناظراً بخبث عمّن جاء يحرّر سجنه، كان ينمدّد ويستيقظ ويشب ويشمُّ الرائحة، كان كالقائد تفرّق خطواته المحسوبة الحراس بدروعهم البيضاء الصلبة، كان القائد الحوت أخيراً يدلف الكهف الضيّق المظلم ويبحث عن عشبته المفقودة، عشبة الخلود الأبدي، حتى يكي خيبته وفقدها إلى

www.10planet.net/vb

الأبد! لم يكن سهلاً أن يبكي الحوت أخيراً بدمع ساخن وحارق، وترقص الدلافين ذات الأجنحة رقصتها الأخيرة، دلفينان كبيران يرفصان في الهواء حول الكعبين، وآخران فرنفليان صغيران يلهوان فوق ساحة الظهر اللامع. هكذا غابت الدلافين في غابة المتعة الأخيرة.

منتديات الكوكب العاشر

www.10planet.net/vb

(٣٧)

كتب لها في رسالة إلكترونية: أنا يا آمنة افتقدتك منذ خرجت من الفندق ولم أجدك، منذ أصبحت وحيداً أمشّط طرقات الدقّي وأتأمل مركز الشرطة والكلاب السوداء التي تطوف بألسن مدلوقة، والشبّان الريفيين في زيّ الشرطة، ومكتب الخطوط المصرية المقابل، والجسر فوق النيل، والنيل الكامد قليلاً، والمراكب التي بلا طعم ولا لون ولا موسيقى، والعشاق الذين يمشون بجوار بعضهم ويتخاصمون في أمور الحياة وحلم الشقة والوظيفة والملابس الجديدة، العشاق الذين لم يعد بعضهم يمسك بأيدي بعض. أنا يا آمنة بكيتك على النيل وأنا مستند إلى الحاجز الحديدي، وفكّرت أنه قد ينخلع فجأة فأهوي مثل جثّة في قلب الماء، كنت أفكر في ما سأفكر فيه وأنا أهوي، في الثواني القليلة الخاطفة المتبقية قبيل أن يرتطم جسدي بسطح الماء، لمشاهد المتلاحقة أمام بصري كفيلم سينمائي عبث في مونتاجه رجل مجنون، اللحظة التي نظرتِ نحوي بابتسامة

www.10planet.net/vb

أولى وقلت لزميلتك: نخدمه بعيوننا! وحتى اللحظات التي جسّت يدك الصغيرة حيواني المتململ خلف سحّاب الجينز، وما إن أحسستِ به يستيقظ تحت يدك حتى سحبتها وضحكت في غمرة النعاس: ممنوع مداخلات أعضاء الشرف! كنت أرى أمك فاطمة وأخواتك وطفولتك المسلوبة، أمي وصديق الطفولة محمود والجنود الإسرائيليين على دباباتهم خلف خليج العقبة والمنظار الروسي العتيق الخاص بجدي، والعين السحرية في باب الفندق، وإمام المسجد ينفث في صدري، وزميلي المدرّس البدوي يحرق الزهور في تبوك، وأحمد الطويل يشهر عضوه في مقبرة «أبو هامور» ويبول على قبر أبيه، ويفعل أخوه الأصغر القتيل مثله بينما سبابته اليمنى تعبث بخيط البول المتدفق، ويضحكان، وأباك يضاجع امرأة آسيوية تضحك، وخالي بعزل جثث الجنود الأميركيين عن صناديق الفاكهة وسط ثلاجاته المتنقلة، وجدّي يحفر القبور ويبحث عن شيء ما، يتبعه أبو محمود ينبش بدوره باحثاً عن مفاتيح بيته في الضفة، ولمعة عينيك في صالة السينما في لندن، ورغبتك في تذوق شحمة أذني، ونفختك الأولى في نطعة الهارمونيكا التي اشتريتها من شارع محمد علي، آه يا آمنة كانت النفخة الأولى فيّ، في روحي، كأنما أحيا معك في اليوم ألف مرة، وأموت بفقدك في اليوم آلاف المرات.

كنت أسقط مثل حجر ثقيل في النيل، بينما أطفو خفيفاً جدّاً في غرفتك اليوم في النهار، ها هو الليل الأول يأتي بدونك، في العصر كنت أطير في سماء الغرفة كنورس، وفي الليل من اليوم ذاته كنت أحطُّ من على جسر النيل ثقيلاً ومعتماً، لا أملك أن أحرّك ذراعي لأطير، فالخفّة بك ومنك، والثقل بدونك وبوحشتي.

كنت يا آمنة أشعر بالسأم والملل والضيق قبل أن أكتشف أعجوبة

www.10planet.net/vb

دلفينيك القرنفليين، وظللت أحلم بهما ليلاً طويلاً، وأخطط كيف أقتحم المحيطات والخلجان والبحار كي أصل إليهما وأركبهما واحداً واحداً، لكنني يا آمنة حين غصت في نيلك حتى أعماقه افتقدتك أكثر، وعاد السأم والملل مرة أخرى، هاأنذا أعاني من الكآبة من جديد، وأعود العيادات النفسية في الرياض، ويمتلئ جوفي بأقراص البروزاك وغيرها دون جدوى. لا أعرف أين أمضي في ليل كهذا الليل في بلدة حقل، محل أسطوانات الغار أسفل العمارة التي أسكن فيها لا يكفُّ عن دحرجة الأسطوانات ذات الخمس والعشرين كلغ، ومحل شاورما أبو فهمي تزدحم حوله سيارات الساهرين آخر الليل بالأغاني الصاخبة، وعامل النظافة البنغالي الذي يحمل المكنسة في هذا الوقت المتأخر يتنقل بين السيارات في مهمات سرّية، والشابة الشحّاذة واقفة قرب ماكينة الصرف الآلي كي تصطاد الشباب الذين يسحبون نقوداً قليلة، وأنا في غرفتي أرى كل ذلك من شقّ الستارة على نافذتي، وأتذكرك وأبكي.

نيسان/أبريل ٢٠٠٥م

www.10planet.net/vb

صدر له

- **ظهيرة لا مشاة لها**، (قصص قصيرة)، الرياض ١٩٨٩م.
- **رجفة أثوابهم البيض**، (قصص)، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٣م.
- **لا بد أن أحداً حرّك الكراسة**، (نصوص)، دار الجديد، بيروت ١٩٩٦م.
- **لغط موتى**، (رواية)، دار الجمل، كولونيا/ المانيا ٢٠٠٣م.
- **فخاخ الرائحة**، (رواية)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- **النخيل والقرميد ـ مشاهدات من البصرة ونورج**، (أدب رحلات)، دار السويدي،أبو ظبي/المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٤م.
- **القارورة**، (رواية)، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء ٢٠٠٤م.
- **أخي يفتّش عن رامبو**، (قصص قصيرة)، لمركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء٢٠٠٥م.